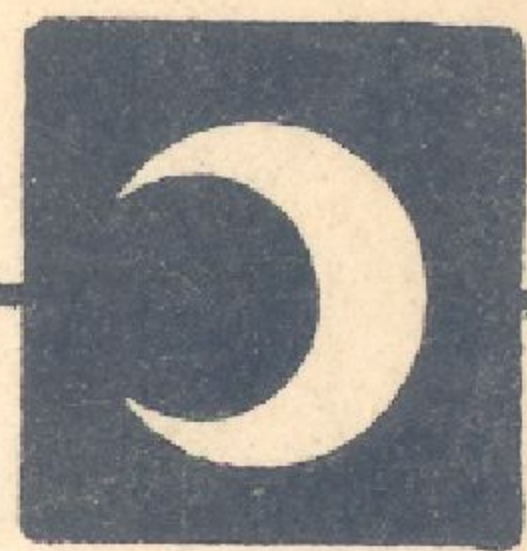


كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
فكرية

صلاح القاهرة

قصة ١٠٠٠ سنة

جمال الغيطاني



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير: **كمال النجوى**

مدير التحرير: **عايد عياد**

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٣ - ذو القعدة ١٤٠٣ - سبتمبر ١٩٨٣

No. 393 — September 1983

الاشتراكات

سبعة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى • وفي بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الخوى وفي سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . بحواله بريديه غير حكومية وفى الخارج بشيك رسوم البريد المسجل

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الكتاب بويشسية
الفتاة سميرة حسنين

جمال الغيطاني

الأمح الفلافية

١٠٠٠ سنة

دار الهلال

مقاهى القاهرة

« . . . مقاهى القاهرة ، عالم فريد ، متشابك العناصر ، يحوى الملامح الانسانية العسامة ، وله ايضا سماته الخاصة جدا . فى مقاهى القاهرة يجلس الناس حول المناضد متواجهين ، يتبادلون النجوى ، والاحاديث ، والاشواق الانسانية ، والمصالح المادية ، وقضاء الحاجات ، وعقد الصفقات ، وثمة من تلفه الوحدة ، يجلس محملا فى الفراغ ، وقد يحاول قهر وحدته بحديثه الى جار لا يعرفه ، وربما بدأت بينهما علاقة قوية قد تستمر عمرا ، وربما لم تعيش أكثر من حدود اللقاء . . . » .

الى أى عمق تاريخى ينأى عمر المقهى القاهرى ؟ لا يوجد مرجع تاريخى يحدد هذا ، ولم تخصص دراسة لرصد تضاريس هذا العالم المتكامل ، ولكن الذى لا شك فيه ان المقهى كان جزءا من الحياة القاهرية . منذ أن اتسعت القاهرة ولم تعد الحياة قاصرة فيها على الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم ، ولا شك أن المقهى كان موجودا بشكل مختلف عما نعرفه الآن ، فالقهوة التى استمد منها المكان اسمه لم تدخل مصر الا فى القرن السادس عشر الميلادى ، قيل ان أول من اهتدى اليها هو ابو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس ، كان يمر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته ،

فوجد فيه تجفيفا للدماغ واجتلابا للسهر ، وتنشيطا للعبادة ، فاتخذ طعاما ، وشرابا ، وأرشد أتباعه اليه ، ثم وصل أبو بكر الى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، وهكذا أدخل الصوفية شراب القهوة الى مصر ، واختلف الناس حول هذا المشروب الجديد ، هل هو حرام أم حلال .

حرم البعض القهوة لما رأوه فيها من الضرر ، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة وفي سنة ١٠٣٧ هـ زار القاهرة الرحالة المغربي أبو بكر العياشي ووصف مجالس شرب القهوة في البيوت ، وفي الاماكن المخصصة لها .

في مطلع القرن العاشر الهجرى حسمت مشكلة تحريم القهوة أو تحليلها ، وانتشرت في القاهرة الاماكن التي تقدمها ، وأطلق عليها اسم المقاهى ، ويبدو لنا أن هذه الاماكن كانت موجودة من قبل ذلك بمئات السنين ، ولكن لم يطلق عليها اسم المقاهى لان القهوة نفسها لم تكن دخلت الى مصر ، كانت هذه الاماكن معدة لتناول المشروبات الاخرى كالحلبة ، والكركديه ، والقرفة ، والزنجبيل ، ولم يكن الدخان معروفا أيضا حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، ويحدد الاسحقى المؤرخ المعاصر ظهور الدخان في سنة ١٠١٢ هـ ، غير أن مشكلة الدخان كانت أكثر تعقيدا ، لقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه ، وكثيرا ما كان يطارد مدخنوه تماما كما يطارد مدخنو الحشيش في أيامنا هذه ويذكر الجبرتنى فى حوادث سنة ١١٥٦ ، أن الوالى العثمانى أصدر أوامره بمنع تعاطى الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين ، وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الاغا ، ونادى بذلك ، وشدد بالانكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وكان كلما رأى شخصا بيده

آلة الدخان يعاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من نار .

القرن التاسع عشر

ربما كان أدق وصف وصل الينا عن المقاهى المصرية ، ما كتبه المستشرق الانجليزى ادوارد وليم لين ، فى كتابه « المصريون المحدثون » ، يقول « لين » الذى زار القاهرة وعاش بها فى مطلع القرن التاسع عشر « ان القاهرة بها أكثر من ألف مقهى ، والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود ، ويقوم على طول الواجهة ، ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الاجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها كذلك تقريبا ، وفى داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبيين أو ثلاثة ، ويرتاد المقاهى أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصرا ومساءا وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ، ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه ، ويقدم « القهوجى » القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد ، أو عشرة فضة للبكرج الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة ، ويحتفظ القهوجى أيضا بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة ، وتستعمل هذه الأخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الذى يباع فى بعض المقاهى ، ويتردد الموسيقيون ، والمحدثون على بعض المقاهى ، فى الأعياد الدينية خاصة ... » .

وفى كتاب وصف مصر الذى أعدته الحملة الفرنسية جزء عن المقاهى فى زمن الحملة : « تضم مدينة القاهرة

حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة . وليست لهذه المباني أية علاقة بالمباني التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا الا من حيث استهلاك البن على الرغم من ان هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المباني اثاثات على الاطلاق وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات « دكة » خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة بالإضافة الى بنك خشبى عادى بالغ البساطة .

ويبدو من وصف المقاهى هنا أنها تشبه الى حد كبير بعض المقاهى الصغيرة التى لا تزال قائمة فى قرى الصعيد الجنوبى ، لم يكن نظام الجلوس الى مناضد وفوق كراسى متبعا ، ويبدو ان هذا النظام لم ينتشر الا بعد انشاء البارات المخصصة لتقديم الخمور ، ولكن لم ينتقل نظام الجلوس من المصطبة الى استخدام المقاعد والمناضد مباشرة انما مر بفترة كانت تستخدم فيها الدكك الخشبية العريضة ، ولا يزال مقهى الفيشاوى القديم وبعض مقاهى القاهرة الفاطمية تحتفظ بدكك خشبية عريضة تتسع الواحدة منها لجلوس خمسة أو ستة أشخاص متجاورين ولا تزال إحدى الدكك الخشبية فى مقهى الفيشاوى تحمل تاريخ صنعها فى سنة ١٩١٠ أى فى بداية هذا القرن ، ويكاد المقهى القاهرى يشبه فى

ذلك الحين ، المقهى البغدادي الآن ، والذي يستخدم للجلوس فيها الدكك الخشبية ، غير أن الأدوات التي كانت مستخدمة في مقاهى القاهرة عند بداية القرن التاسع عشر ، لم تتغير كثيرا حتى الآن .

أدوات المقهى

في أى مقهى قاهرى يطالعنا رف عريض فوق «النسبة» أى المكان الذى يتم فيه اعداد المشروبات ، هذا الرف يحمل عددا من النرجيلات ، وهى آلة التدخين ، وشكل النرجيلة لم يتغير كثيرا عما كان عليه منذ مائتى عام ، فى بداية القرن التاسع عشر ، كانت النرجيلة تتكون من عدة أجزاء ، أولها الجوزة الهندية (وقد حل مكانها الآن البرطمان الزجاجى) ويوضع فيها الماء ، ثم القلب النحاسى الذى يحمل الحجر المصنوع من الفخار ، ويوضع فوقه الدخان ، وفوقه جمرات الفحم ، وتتصل أنبوبة التدخين بقلب النرجيلة (الآن يسمى الانبوب « اللى ») ويوضع فى مقدمته فم من الكهرمان ، لقد كانت صناعة النرجيلة فى بداية القرن التاسع عشر دقيقة ، ويوجد نماذج عديدة فى دكاكين المتحف القديمة بخان الخليلى الآن ، كل منها كالتحفة الفنية ، بعضها صنع من الفضة ، والنحاس ، والزجاج الثمين ، ويوجد حاليا قسم بأكمله من شارع المعز لدين الله فى القاهرة يضم عددا من المتاجر تختص بأدوات المقاهى ، ولوازمها .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت القهوة تقدم فى « بكرج » موضوع على جمر فى وعاء من الفضة أو النحاس يسمى « عازقى » ويعلق هذا الوعاء فى ثلاث سلاسل ، ويقدم الخادم القهوة ممسكا أسفل الطرف بين الإبهام والسبابة ، وعندما يتناول الفنجان والطرف يستعمل كلتا يديه واضعا شماله تحت يمينه ، وتستعمل مجمرة تسمى « منقدا » من النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحيانا ، وكانت القهوة يضاف إليها أحيانا الحبهان ، أو المصطكا ، أما الأغنياء فكانوا يضيفون إليها العنبر ، أما الآن ، فالقهوة تقدم فى كنكة من نحاس ثم تصب فى فناجين خزفية صغيرة ، وفى معظم المقاهى تقدم القهوة مجردة ، بدون اضافة أى شىء إليها ، ولكن هناك تاجر واحد للبن فى القاهرة الآن يقوم بخلط البن بالحبهان ومواد أخرى تضاف عليها مذاقا خاصا لطيفا ، ويعتبر هذه التركيبة من الاسرار ، ودكانه يقع فى احدى حوارى الفورية بالقاهرة القديمة .

ومن أهم المشروبات فى المقاهى الآن « الشاى » ، وهو مشروب حديث ، لم يدخل مصر الا فى القرن التاسع عشر ، وأثناء الجلوس بأى مقهى قاهرى ، تصل الى الاسماع نداءات يطلقها الجرسون مناديا العامل الذى يقف وراء المنصة ، يبلغه بطلبات الزبائن ، ولكل مشروب اسم معين ، والشاى له أكثر من اسم :

- شاى بنور : أى شاى عادى فى كوب زجاجي .
- شاى ميزة : أى شاى مخلوط باللبن .

- شاي بوسته : أى شاي غير مخلوط بالسكر ، انما السكر فى اناء صغير مجاور له .
- شاي كشرى : أى توضع أوراق الشاي الجافة فى مياه مغلية مع السكر .
- اما القهوة فيكتفى للنداء بالآتى :
- واحد سادة : أى بدون سكر .
- واحد مضبوط : أى متوسط المذاق .
- واحد زيادة : أى السكر أكثر قليلا .
- كما تسمى القرفة « فانيليا » . والنجيلة الصغيرة « حمى » ، والنجيلة التى تحمل كمية أكبر من الدخان الخالص « عجمى » ، أما الدخان المخلوط بالعسل « المعسل » فينادون عليه قائلين « واحد بورى » ، أو « المصرى » وبالفعل فهو شكل مصرى خالص من التدخين ، وان كان يشبه دخان « الجراك » المعروف فى الهند وبعض بلدان الجزيرة العربية ، غير أن الجراك عبارة عن فواكه عطرية مخلوطة ببعض الزيوت ، أما المعسل ، فهو دخان « تمباك » مخلوط بالعسل الاسود .

أبوزيد . . والظاهر

حتى انتشار المدياع فى مصر ، كانت المقاهى اماكن مخصصة لرواية قصص السيرة الشعبية والملاحم ، وكان أصحاب المقاهى يستقدمون رواة القصص ، وبعضهم يعرف باسم « الهلالية » لتخصصهم فى سيرة أبوزيد الهلالي ، والبعض الآخر يعرف باسم « الظاهرية » نسبة

الى الظاهر بيبرس ، وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس في القرن السادس عشر الميلادى ، وهى قصة طويلة تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة ، فضلا عن انها تصور حياة المجتمع المصرى بدقة ، وظهرت قصص اخرى هى سيرة الاميرة ذات الهمة ، و « الدرة الملكة فى فتح مكة المبجلة » ، و « غزوة الامام على مع اللعين الهضام ابن الحجاف » ، و « فتوح اليمن المعروفة برأس الغول » .

ونلاحظ ان قصة الظاهر بيبرس قد انتشرت وذاعت بعد الغزو العثمانى لمصر عام ١٥١٧ ، ويبدو انها كانت كرد فعل على الهزيمة ، والجراح التى لحقت بالناس ، ونفس الظاهرة نلاحظها بالنسبة للحمة «أبوزيد الهلالى» التى انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، والاحتلال الانجليزى لمصر ، انه رد فعل الشعب تجاه حدث اليم ، وشكل لحماية الذات بواسطة الفن .

كانت هناك قصص اخرى تروى بالمقاهى ، مثل قصة سيف ابن ذى وزن ، وألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة العيسى ، وكان المنشدون يتخذون آلات الطرب كالربابة والعود ، وقد قضى الراديو على هذه الطائفة قضاء مبرما .

يمكن القول ان العصر الذهبى لمقاهى القاهرة كان فى النصف الاول من هذا القرن ، خاصة فى العشرينات ، والثلاثينات ، وكانت القاهرة الجميلة ، الهادئة وقتئذ ، تزخر بالعديد من المقاهى ، منها مقهى نوبار والذى توجد مكانه الآن مقهى المالية ، وكان مجمعا للفنانين ، وكان عبده الحامولى يقضى أمسياته فيه ، ومعه بعض

اصحابه ، ومنهم باسيلي بك عريان الذى أفلس بعد ان
انفق نصف مليون من الجنيهات ، وأحيانا كان يضيق
بزبائن المقهى فيطلب من صاحبه أن يخليه من الزبائن له
ولا صدقائه فقط ، على أن يعوضه الخسارة .

وفى ميدان الأوبرا ، كان يوجد مقهى السنترال ،
وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمى فى ميدان
الأوبرا ، وهذا الملهى يضم أيضا مقهى من طابقين حتى
الآن ، ويعرف باسم كازينوا الأوبرا ، وكانت تعقد به
ندوات أدبية لنجيب محفوظ كل يوم جمعة ، وعندما
التقيت به لأول مرة كان ذلك فى ندوة الأوبرا الشهيرة
هذه .

أما مقهى متاتيا فمكانه فى ميدان العتبة الخضراء ،
وكان يؤمه جمال الدين الافغانى ، والامام محمد عبده ،
وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى المحامى المشهور ،
ثم ارتاده عباس العقاد ، وإبراهيم المازنى ، والشيخ فهم
قنديل صاحب جريدة عكاظ التى كانت تصدر فى
القاهرة ، وفى ركن المقهى مطعم صغير للفول والطعمية
كان رواد المقهى يجدون فيه حاجتهم من الطعام .

وعلى مقربة من الموسكى ، قهوة القزاز ، ومكانها الآن
بعض المباني القائمة عند الجانب الايمن من الشارع
بالقرب من العتبة ، وعامة زبائنها من أهل الريف ،
الذين يجلسون فيها ويتأملون النساء القاهريات
المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء ، أثناء اتجاههن
لشراء حوائجهن من أكبر شوارع القاهرة التجارية فى
ذلك الوقت ، شارع الموسكى ، وبالقرب من مقهى القزاز
كان يوجد محل حلوانى اسمه اللبان ، وكان زبائنه من

العسكريين القدامى ، والعجائز المتصايين ، بعضهم حارب مع عرابى ، وبعضهم شهد حرب الحبشة ، ومنهم من حضر فتح السودان ، كانوا يجلسون يتابعون المارة ، ويتبادلون الذكريات المستمدة من سنوات عمرهم البعيدة .

وفى شارع محمد على يوجد مقهى « التجارة » ، وهو من أقدم مقاهى القاهرة ، ويزيد عمره الآن عن مائة وعشرين سنة ، ولا زال قائما حتى اليوم ، ومعظم رواده من الموسيقيين العاملين فى الفرق التى تتخذ من شارع محمد على مقرا لها ، هذه الفرق التى يطلق عليها ، فرق حسب الله ، وحسب الله هذا كان أحد الموسيقيين بجوقة الخديو اسماعيل ، وعندما خرج من الخدمة شكل أول فرقة للموسيقى تتقدم الجنازات والافراح .

وفى نهاية شارع محمد على ، امام دار الكتب ، مقهى الكتبخانة ، وكان من روادها حافظ ابراهيم ، والشاعر عبد المطلب ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وكان من رواد هذا المقهى أيضا الشيخ حسن الآلاتى ، وكان الشيخ يرتاد مقهى آخر بحى السيدة زينب ويطلق عليه اسم المضحكخانة ، ويشترط لدخول مجلسه وضع رسالة فى التنكىت والقفش ، حتى اذا حازت عنده قبولا ضم مقدمها الى مجلس النقادى ، وقد جمع الشيخ حسن الآلاتى كثيرا من نوادر المضحكخانة فى كتاب طبع فى نهاية القرن الماضى ، ويحمل نفس الاسم المضحكخانة .

وخلف دار الكتب كان يوجد مقهى بلدى صاحبه رجل عرف بهوايته لمصارعة الديوك ، وكان من رواده بعض الاثرياء الذين يشاهدون ما يقدمه من عروض ، وفى شارع الصليبة القريب كان يوجد مقهى الاتراك ، ومعظم

زبائنه من الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون أنفسهم من بيت محمد على للحرب ، وفي شارع محمد على أيضا مقهى عكاشة ، وهذا المقهى أنشئ في الأربعينات ، بناه اولاد عكاشة أصحاب الفرق المسرحية المشهورة ، وكان مقهى مزودا بأجهزة استماع للموسيقى ، يجلس الزبون الى المنضدة ، ويضع السماعات الى أذنيه ، ويطلب سماع أى اسطوانة يرغبها ، لقد أدرك الزمان هذا المقهى بخطواته الثقيلة ، فأصبح مجرد مقهى عادى به آثار من العز القديم ..

وفي حي الحسين ، مقهى الفيشاوى الشهير ، وعمره الآن يتجاوز المائة عام ، وكان يتكون من واجهة انيقة ودھليز طويل حوله مقاصير صغيرة صفت فيها مواائد رخامية ، ودكك خشبية ، وكانت شهيرة بالشاي الأخضر والاحمر الذى يقدم فى اكواب زجاجية صغيرة ، وفى شهر رمضان يكثر رواده من الفنانين والكتاب والناس العاديين وفى أيام الشهور العادية ، كان للمقهى سحره الخاص ، وداخله يخيم هدوء يمت الى الازمان البعيدة الجميلة تؤطره هذه التحف العربية المتناثرة فى المكان ، وامامه يجلس الحاج فهمى الفيشاوى يدخلن باستمرار النرجيلة التى لا تنتهى ابدا ، وعلى بعد خطوات منه حصانه العربى الاصيل ، وفوقه اقفاص الحمام الذى كان مفرما بتربيته ، لقد صدر قرار بهدم هذا المقهى بعد عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع الحاج فهمى أن يواصل الحياة حتى يرى نهاية مقهاه ، فمات قبل أن يرتفع أول معول للهدم بأيام قليلة . ولحقه على الفور الحمام الذى كان يربيه . كان من أشهر رواد المقهى الاديب العربى نجيب

محفوظ ، الذى كان يخلو الى جوه الهساديء المعبق بالتاريخ يوميا اثناء عمله بمكتبة الفورى القريبة عندما كان يعمل فى وزارة الاوقاف ، من الشخصيات التى ارتبطت بالمقهى أيضا عم ابراهيم كان رجلا قصيرا ، ضريرا ، يتاجر فى الكتب ، وكان سريع النكتة ، فى ليالى الثلاثينات يجلس الى عدد كبير من الرواد ، ويبادلهم هذا الشكل الفكاهى من الحوار ، والمعروف فى مصر ، باسم «القافية» وكان يرد عليهم كلهم ويهزمهم ، لقد عرف مقهى الفيشاوى العديد من الشخصيات ، بعضها باق فى ذاكرة التاريخ ، والكثير منها رحل الى دروب الصمت .

على مقربة من الفيشاوى كان هناك مقهى قديم وغريب ، يقع تحت الارض ، واسمه مقهى سى عبده ، وكان دائرى الشكل ، يضم عدة مقصورات ، تتوسطها نافورة مياه ، وقد وصف نجيب محفوظ هذا المقهى فى روايته العظيمة ، الثلاثية ، حيث كان يلتقى كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوى ، لقد اندثر هذا المقهى تماما ، ومكانه الآن بعض المباني الحديثة .

ومن المقاهى الشهيرة فى القاهرة القديمة والباقية حتى الآن ، مقهى عرابى الذى يقع بميدان الجيش ، عند نهاية الحسينية ، وعرابى صاحبه كان أحد الفسوات المشهورين فى اوائل هذا القرن ، وقد بلغ من سطوته ان مأمور قسم الظاهر لجأ اليه يوما يطلب حمايته لان احد الاجانب هددته ، وكان الاجانب يحاكمون أمام محكمة خاصة فى ذلك الوقت ، ومن رواد مقهى عرابى نجيب محفوظ ، حيث يلتقى بأصدقائه القدامى ، وزملاء

طفولته ، وفى هذه الجلسة التى تتم كل يوم خميس
تلعلع ضحكات الاديب الكبير ، ويبدو مرحا ، سريع
النكتة ، ولا يطرق هذه الجلسة من الشبان الا عدد
محدود جدا عرف طريق المقهى الذى يستعيد فيه أدينا
الكبير ذكرياته وقصص شبابه مع رفاق الزمن القديم ،
غير انه انقطع عن الانتظام فى حضور هذه الندوة الاسبوعية
منذ عامين ، والسبب ، أزمة المواصلات فى القاهرة ،
التي تعوق أدينا الكبير عن الوصول من بيته فى العجوزة
الى ميدان الجيش .

وفى مواجهة مسرح رمسيس « مسرح الريحاني »
كانت تقع قهوة الفن ، وفيها البؤساء من الفنانين ،
والكومبارس ، والنساء الضاحكات ، كانت هناك ماري
منصور ، وزينب صدقي ، ودولت أبيض ، وأمينة رزق ،
وعزيز عيد ، وفاطمة رشدي ، وأحمد علام نقيب الممثلين .
أما مقهى « ريش » الذى لا زال موجودا حتى الآن ،
فكان من أشهر مقاهى القاهرة .

وحتى أربعينات هذا القرن يوجد عدد كبير من المقاهى
فى روض الفرج ، مقاهى جدرانها من الخشب ، محاذية
للنيل ، وفى كل منها عدد من فناني شارع محمد على ،
يعرضون فيها الفناء والمونولوج ، ومنهم حسين المليجى ،
ونعمات المليجى ، ولهوبة ، وزينب فلفل ، وغيرهم ..

ويوجد فى شارع محمد على مقهى للمنجدين ، وفى
باب الشعرية مقهى لا يرتاده الا عمال الافران البلدية ،
وبجوار سينما كايرو فى القاهرة مقهى يؤمه الخرس
فقط الذين فقدوا نعمة النطق ، وأشهر مقاهى النرجيلة
فى القاهرة الآن ثلاثة : الندوة الثقافية بباب اللوق ،

وأخرى تحمل نفس الاسم بمصر الجديدة ، ومقهى ثالث
بشارع أحمد سعيد بالعباسية .

وإذا ما رحلنا الى الخمسينات سنجد مقهى اندانا
فى الدقى ، وكان مقرا لندوة أدبية يومية محررها الناقد
الراحل أنور المعداوى ، وكان من رواد هذه الندوة رجاء
النقاش ، وسليمان فياض ، ومحمد أبو المعاطى أبو النجا .
والآن انحسرت الندوات الادبية التى كانت تعقد فى
المقاهى ، لم يكن متبقيا منها الا ندوة نجيب محفوظ مع
شباب الادباء فى مقهى ريش ، كل يوم جمعة ، وحتى
هذه الندوة توقفت منذ أن قرر صاحب المقهى اغلاقه يوم
الجمعة من كل أسبوع .

بالقرب من قهوة ريش ، مقهى آخر يلتقى فيه عدد
كبير من المثقفين والادباء والصحفيين ولكن بشكل غير
منتظم ، وهو مقهى « الندوة الثقافية » ، وهو مشهور
بالنرجيلة ، ويوليها اهتماما خاصا ، فى نفس الوقت
الذى لا تعنى فيه المقاهى الاخرى بهذا النوع من
التدخين .

وحدة انسانية

لقد ولى العصر الذهبى للمقهى ، ولكن هذا لا يعنى
تقلصها ، أو انحسارها ، صحيح ان المقاهى التى تفتح
حديثا نادرة للغاية ، كما أن محلات تقديم المشروبات
ووجبات الطعام السريعة تنتشر الآن ، ولكن لا تزال
أكثر من خمسة آلاف مقهى فى القاهرة تعج بالزبائن
والرواد ، كل مقهى منها يمثل وحدة سياسية ،

واقتصادية ، واجتماعية ، وانسانية ، فيه تصب كل العناصر التى يتشكل منها المجتمع ، الراى العام للناس يتشكل فى المقهى ، وخلال الفترات التى ينتخب فيها اعضاء البرلمان يكون المقهى هو المكان الذى تنطلق منه وتتركز فيه الدعاية ، ويطوف المرشح بمقاهى المنطقة ، يجلس الى الرواد ويتحدث اليهم ويتودد اليهم ، وقد يدعو كل الجالسين لشرب الشاى أو القهوة .

ويرتبط المصريون بالمقهى ارتباطا كبيرا ، ولكل منهم مقهاه المفضل الذى يقع عادة بالقرب من سكنه أو مقر عمله ، قال لى أحد العاملين بهيئة الامم المتحدة انه عندما ذهب الى نيويورك فى أواخر الخمسينات شعر بفراغ غريب ، ثم أدرك بعد حين ان السبب افتقاده للمقهى ، والجلوس به ، وطاف بنىويورك حتى عثر على مقهى يونانى فيه طابع مقاهى حوض البحر المتوسط الذى يقترب الى حد ما من المقهى العربى فى مصر ، ولدهشته فوجيء بوجود عدد من المصريين يرتادون المقهى ، وكان عدد المصريين فى نيويورك كلها وقتئذ لا يتجاوز الثلاثين ، وفوجيء انهم اتخذوا مقرين للجلوس ، المقر الاول مقهى ذلك اليونانى ويرتاده الصعايدة ، والمقهى الثانى قريب ويرتاده أبناء الوجه البحرى .

فى المقاهى يتخذ البعض مقرا ثابتا لاعمالهم التجارية ، مثل السماسرة ، والمقاولين ، كما يطوف بها الباعة الجائلين يحملون بضاعتهم التى تتشكل من أقلام الحبر والنظارات ، والمحافظ الجلدية ، وسلاسل المفاتيح المعدنية ، وعندما يدرك التعب أحد هؤلاء الباعة يأوى

الى مقعد ملتصبا بعض الراحة ، وفوق ملامحه يبدو
الشقاء والكد .

يرى البعض ان المقاهى أماكن يتبدد فيها الوقت ،
وتعطل الانتاج ، ولكتنى اذ أركن الى أحد مقاهى القاهرة
القديمة ، أحاول تلمس معالم هذا الزمن الرائق الحلو
الذى نفتقده الآن فى الضجيج والزحام ، وإيقاع الحياة
السريع اللاهث ، ان المقهى نموذج مصغر لمنايا يضج
بكل ما تحويه دنيانا . . . » .

الترجيلة

« .. عرفت الترجيلة منذ خمسة عشر عاما ، عرفتھا كصديق صامت ، يأنس اليه الفؤاد عندما ينوء تحت وطأة الاحزان والاكدار ، صديق يساعد العقل على التركيز ، واقتناص شوارد الفكر من هنا وهناك ، بدون ان يفرض مطالب خاصة ، أو ازعاجات ، أو يمر بمراحل القلب من حب وكره وبغض ، اذا ما تضاعفت الوحدة تبعث قرقرة المياه ونسة ، وتوحى الجمرات المتوهجة بحدود عالم سحري ، مبهم ، عرفت الترجيلة فى آخر زمانها ، فلا شك انها تزدوى ، ويدهسها ايقاع العصر السريع ، وفى كل بلد ذهبت اليه كنت أبحث عن الترجيلة ، عرفتھا فى مقهى هافانا بدمشق ، وفوق جبل قاسيون ، أرقب الافق الاخضر البعيد من خلال صحبئها ، نرجيلة دمشقية أنيقة بزخارفها ، ودقة صناعتها ، أما الترجيلة البغدادية فى مقهى الاورفلى بشارع السعدون فهي غنية بالتمباك ، خشنة المظهر ، يشرف على تقديمها رجل عجوز ، يحيط خصره بفوطة حمراء . صامت دائما وكأنه يؤدي طقوس خاصة لا يجوز الاطع على مكنونها . أما الترجيلة القاهرية فهي انسانية فى مجتمعها ، لها مجتمع خاص يتجمع حوله الاصحاب ،

أصحاب من نوع خاص يجمعهم هواية تدخين النرجيلة، وبعد أن كانت تقدم فى أماكن خاصة ، وفى أزهى الأشكال انزوت الآن فى مقاهى قليلة ، أما النرجيلة التركية فقد كادت تختفى ، ولا تقدم إلا فى عدد قليل من المقاهى ، خشنة المظهر ، ذلت بعد عز كبقايا الامبراطورية العثمانية ، يقبل عليها شباب الهيز الأوربيين وكأنها اعجوبة ، ينفثون دخانها ويحملقون الى مياه القرن الذهبى من موقع ذلك المقهى تحت كوبرى جلطة .

قد تختلف النرجيلة من هنا الى هناك ، ولكنها بشكل عام آخذة فى الاضمحلال ، والزوال . مع زحف ايقاع العصر السريع ، على روح الشرق التأملية ولن يمضى زمن طويل حتى يولى عصر النرجيلة تماما ..

التبغ

كانت البداية من أمريكا ، عندما رأى البحارة الأوربيون هنود القارة الجديدة يدخنون هذه المادة التى تبعث دوارا خفيفا ، التبغ ، ومنها انتقل الى أوروبا ، ثم الى الشرق ، وظهر الدخان فى مصر سنة ١٠١٢ هـ . واثار ظهوره خلافات حادة بين علماء المسلمين ، وتمسك معظمهم بتحريمه ، ولا زال الوهابيون يحرمونه حتى الآن ، وكانت الاوامر تصدر بمنعه أحيانا ، فى حوادث سنة ١١٥٦ هـ ، يذكر الجبرتى ان والى العثمانى أصدر أمرا بمنع التدخين ، ونزل معه الاغا ، وتابع بنفسه المنع ، حتى انه كان يعاقب المدخن باطعامه الحجر الذى

يوضع فيه الدخان بما فيه من النار ، لكن المتصوفة
تعصبوا للدخان ، كما تعصبوا للقهوة والشيشة من
قبل ، ونظم أبو الذهب البكرى قصيدة في الدخان :

هات اسقنى التبغ ان نبع الصفا سحرا
حتى أضرر منه وهو أغشاء

واستجل أنوار شمس من
قد زانه قامة بالحسن هيفاء

لعل ناراسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لها بالقرب اطفاء

ولم تكن لفائف التبغ معروفة وقتئذ ، إنما كان
التدخين يتم بواسطة المشبك ، أو النرجيلة ،
وكان المدخنون يحملون الشبك أما بين أيديهم ، أو مع
الخدام خلفهم إذا كانوا أثرياء ، ويبلغ طول قصبة
التدخين - كما يصفها ادوارد لين - أربعة أقدام أو
خمس ، ويفطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية
محبوكة بالحرير الملون ، أو تحدهما ماسورتان من الفضة
المذهبة . ويتدلى من الفطاء الحريري فى الحد الأسفل
شرابة حريرية ، وكان هذا الفطاء يبلل بادیء الامر
بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالي الدخان ، أما الحجر
الذى يوضع فيه التبغ فهو من الآجر ولا زال يصنع من
نفس المادة حتى يومنا هذا ، وكان يوضع تحت الحجر
صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من
النار ، أما « الفم » فيتكون من قطعتين أو أكثر من
الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب
المرصع بالمينا والحجر اليماني واليشب والعقيق ،
وخلاف ذلك من الأحجار الكريمة ، والفم أثمن جزء فى

الشبك وقد يرصع بالماس . وكان الشبك يحتاج الى تنظيف متواصل ، شأنه فى ذلك شأن البابب الآن ، لهذا كان كثير من الفقراء يعيشون على تنظيف الشبك ، ويبدو ان العائلات المسماة بالشبكشى كانت أصلا تتاجر فى الشبك ، أو تقوم بتصنيعه ، وهناك سمة مشتركة بين الشبك والنجيلة وهى طول قصبة التدخين وبعد الحجر عن المدخن ، ويبدو ان ذلك ناتج عن الطبيعة الحارة للبلاد الشرقية ، بعكس البابب الغربى ، الذى يحيطه المدخن بيديه فيسرى اليهما الدفء من الحرارة المنبعثة فى الخشب ، لقد انقرض الشبك الآن تماما ، وأصبح معلقا فى المتاحف على الجدران ، أو فى مراكز بيع الانتاج الفولكلورى القديم ، خاصة فى بغداد ، حيث يضم المركز الفولكلورى أنواعا متعددة من الشبك ، ولا شك ان النجيلة ماضية فى الطريق نفسه ، فبعض النجيلات الثمينة ، المصنوعة من الزجاج الملون ، والمرسوم عليها صور بعض سلاطين الاتراك أو الحكام العثمانيين . أو بعض المناظر الطبيعية ، أما نراها الآن فى المتاحف ، أو معروضة فى بيوت الاثرياء .

النجيلة مشتقة من لفظ « النارجيل » الاسم الذى يطلق على ثمرة جوز الهند ، يمكن القول أن ترجمته الحرفية تعنى « الجوزة » وهو الاسم الذى تعرف به النجيلة الشعبية فى مصر ، لأنها كانت مكونة فعلا من ثمرة جوز هند مفرغة ، وثقب مرتين ، ثقب يوضع فوقه الحجر ، وثقب تنفذ من خلاله أنبوبة خشبية يتم من خلالها استنشاق الدخان الذى يمر خلال الماء الموضوع

فى الجوزة نفسها ، وصف الرحالة والعالم الدهانمركى
كارستين نيبور «الجوزة» المصرية ، التى لم تتغير ملامحها
حتى أوائل هذا القرن، وعندما ارتفعت أسعار ثمار الجوز
فاستبدل به كوز صفيح فارغ ، أو زجاجى ، وهذا أبسط
الاشكال الشعبية للرجيلة ، ويدخن بواسطته المعسل ،
وهو الدخان المزوج بالمسل ، ويعرف فى المقاهى المصرية
باسم « البورى » أو « المصرى » ، يقول كارستين
نيبور ان العامة يدخنون الجوزة للتدفئة أيضا ، ولكن
الرجيلة الانيقة التى تستبدل فيها الجوزة ببرطمان
زجاجى فان كارستين نيبور يطلق عليها « الرجيلة
الفارسية » ، ويقول ان أثرياء فارس يتخذون هذه
الرجيلة وكثيرا ما تكون كلها مصنوعة من الفضة ، أو
النحاس ، وتوجد فى خان الخليلى الآن نرجيلات من
النحاس المنقوش ، يمكن أن يدخن منها عدة أشخاص
فى وقت واحد ، عن طريق عدة ليات تخرج منها ، ومثل
هذه النرجيلات تستخدم فى بعض بلدان الجزيرة
العربية خاصة اليمن والسعودية ، ويقول نيبور ان شيراز
كانت مشهورة بصناعة النرجيلات الزجاجية الانيقة ،
وأحيانا كانت توضع فيها زهور مختلفة الألوان مثبتة من
الداخل ، والنرجيلات الفارسية كانت منتشرة فى الهند
أيضا حتى القرن الماضى ، غير ان ادوارد لين يقدم الينا
وصفا أدق للرجيلة فى مصر .

الشيخة كلمة فارسية تعنى زجاج ، وهو الاسم الذى
تعرف به النرجيلة الآن فى مصر ، وهذا الاسم نتيجة

للوعاء الزجاجى الذى يملأ بالماء الى قدر معين ليمر
الدخان من خلاله ، ويقول ادوارد لين ان التدخين يتم
من خلال أنبوبة طويلة لينة « تسمى لى » . ويفسل
التمباك عدة مرات بالماء ، ثم يقطع ويوضع فى حجر
الشبك وهو رطب ، ويوضع عليه جمرتان أو ثلاثة ،
ويقول لين ان للتمباك عطر لطيف مقبول ، لكن شدة
استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر الرئة
الضعيفة ، ان الوصف الذى كتبه ادوارد لين منذ
حوالى مائة وخمسين عاما لم يتغير كثيرا حتى الآن ،
ولكن الذى تغير هو شكل النرجيلة ، ونوعية الدخان ،
حتى الخمسينات كانت هناك أنواع متعددة من التباك ،
عجمى ، ولاذقانى (نسبة الى اللاذقية) وأزميرلى ،
وهندى ، ويمنى ، وعدنى ، ولكن الآن تنقسم الشيشة
فى مصر الى نوعين رئيسيين ، عجمى وهو نوع خاص
من الدخان مصدره ايران أو تركيا ، ويوضع بكمية أكبر
فوق الحجر ويلف بورقة تمباك صحيحة لم تقطع بعد أن
تبل بالماء . وتشبه الشيشة العجمى مشيلاتها فى دمشق
وبغداد واستامبول ، لكن نوعية التباك الذى يصل الى
مقاهى القاهرة أردأ ، ولهذا فان النرجيلة العجمى يعتبر
دخانها قاسيا ويحتاج الى صدر قوى لتحمله ، أما النوع
الثانى فهو الشيشة « الحمى » ، وكمية الدخان فى
الحجر هنا أقل ، ونوعية الدخان أهدأ ، وهذا هو النوع
الأكثر انتشارا الآن .

وأشهر مقهى فى القاهرة لتدخين النرجيلة الآن مقهى

الندوة الثقافية فى ميدان باب اللوق ، وكان صاحبه محمد حسنين يمتلك مقهى بناء فى سنة ١٩٢٠ بشارع منصور بالقرب من مكان الغرفة التجارية الآن ، ثم هدم المقهى عام ١٩٥٩ ، وانتقل أبناؤه رشاد وجلال وعلى الى هذا المقهى القائم حتى الآن ، والذي يؤمه عدد كبير من الكتاب والفنانين من هواة تدخين النرجيلة ، لكن حتى منتصف القرن كانت هناك أماكن متعددة ، مشهورة لتدخين النرجيلة أهمها مقهى الاوبرا ، أو كما كان يعرف فى الثلاثينات والاربعينات باسم كازينو بديعة نسبة لصاحبه بديعة مصابنى ، كانت تقدم فيه النرجيلات للزبائن ، كل زبون له « لى » خاص به مكتوب فوقه اسمه ، لا يدخن به شخص آخر ، وكان الحجر يقدم محفوقا بالزهور ، وفى الماء توضع ثمرات من الكرز ، وكان يجلس بالمقهى عدد من كبار رجال السياسة ، والاقتصاد ، والادباء ، وأهمهم نجيب محفوظ المدخن العريق للنرجيلة ، وكان منظرا مألوفاً ان ترى السيدات المحجبات يجلسن بهذا المقهى ينفثن دخان النرجيلات بوقار ، بينما تمر بديعة مصابنى بنفسها تتأكد من وفرة الجمر ، وراحة الزبائن ، كانت هناك مقاهى أخرى مشهورة بالنرجيلة ، مثل مقهى عرابى فى ميدان الجيش ، ومقهى الفيشاوى فى الحسين ، والذي كان يجلس أمامه المرحوم فهمى الفيشاوى لا يفارق الفم فمه ليلاً ولا نهاراً ، كان ذلك بعد أن فارق الشباب وهجر الفتونة والشقاوة ، وكان هناك مقهى نوبار الذى كان يغنى فيه

عبدہ الحامولی ویرتاده خلیل مطران ، وسلیم سرکیس
الصحفی ، ومقهی الکتبخانة امام دار الکتب ، وكان یقدم
الشیشة لحافظ ابراهیم الشاعر ، والشیخ عبد العزیز
البشری ، وغیرهما ، وكان هنساک مقهى الشیشة فی
شارع الجمهوریة ، ومكانه الآن دکان للتجارة ، وكان
یجتمع فیہ هواة التدخین ، وهواة المصارعة بالکلاب ،
أما مدینة الاسکندریة فتزدحم حتی الآن بعدد من المقاهی
المشہورة بتقدیم النرجيلة ، مثل مقهى التجارة ، ومقهی
جابر بالمنشیة ، ومقهی فاروق بحی بحری ، ومقهی وادی
النیل بالرمل .

وتصنع النرجيلات فی منطقة القاهرة القدیمة ، وتوجد
عدة متاجر متجاورة بشارع بین القصرین تبیع النرجيلات،
وأدوات التدخین ، من حجارة ولیات ، وغیرهما ، ویبلغ
ثمن النرجيلة المصنوع قلبها من النحاس وهو الجزء الذى
یصل بین البرطمان الزجاجی والحجر ، حوالی خمسة
عشر جنیها ، أما النرجيلة المصنوعة من النحاس الخالص
المنقوش والتى تباع فی متاجر التحف بخان الخلیلی ،
فیبلغ ثمنها عدة مئات من الجنیهات ، وأذكر قسما
خاص بالنرجيلات یحتل أحد فروع سوق الحمیدية
بدمشق بالقرب من المسجد الاموی .

وفی الثلاثینات كان متوسط سعر النرجيلة من التبغ
عشرة ملیمات فی مقاهی القاهرة ، وفی الأربعینات كان
ثلاثة قروش أى ثلاثین ملیما ، وخضع سعر النرجيلة
للتطور ککل شیء الآن فی القاهرة یبلغ سعر النرجيلة
الحمی عشرة قروش ، والعجمی تصل الی أربعین قرشا ،

أما الكيلو من التبغ الخاص بالرجيلة فثمانه ثلاثين
جنيها ، وكان في أوائل الخمسينات بثلاثة جنيهات ،
في دمشق تستطيع أن تدفع نصف ليرة سورية مقابل
تدخين رجيلة فاخرة ، كذلك في بيروت ، في بغداد
ثلاثين فلسا ، وفي استامبول يبلغ قيمة الرجيلة لحجر
واحد ما يوازي نصف جنيه مصرى .

على أية حال ، فالرجيلة ماضية في طريق الانقراض ،
ولن تمر سنوات طويلة قبل أن توضع في المتاحف ، واننى
لأرثى لهؤلاء الذين سيأتون في الازمان المقبلة ، فلن
يجدوا صديقا صامتا ، مستجيبا يلجأون اليه اذا
ما ازداد الكرب ، واعتم الواقع ، وأدلهمت الظروف ،
وبدت الايام رمادية مثقلة بكل باعث للضيق ، والكتمة ،
نحن نلجأ الى الرجيلة ، ولكن هم .. الى من
سيلجأون ؟؟

العمامة المملوكية

« . . للعمامة مكانة في التاريخ ، بل مكانة هامة جدا ، ويبدو ذلك واضحا في العصر المملوكي ، فحجم العمامة ، ولونها ، وطريقة تفصيلها توضح المكانة ، والفئة ، والطبقة ، والمهنة ، والدين ، ولا عجب ، الا تحتل أعلى جزء في جسم الانسان ؟ ، الرأس ، وما يلحق ذلك من مهابة ، ومكانة ، وطلعة ، وللعمامة تاريخ أبعد بكثير من العصر المملوكي ، كان سعيد ابن العاص بن أمية يتميز بين العرب القدامى بجمال عمامته ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعتم بعمامة كانت معروفة باسم السحاب ، وقد أورثها ، أو تنازل عنها لعلی ، ولعل ابن جبر في كلامه عن « عمامة شرب رقيق سحابی اللون قد علا كعبتها على رأسه كأنها سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب » . قد أشار الى هذه العمامة البيضاء للرسول ، وذلك أثناء حديثه عن أمير مكة .

يقول ربنهارت دوزي في « المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب » ان لهذه الكلمة مدلولان ، الاول يشير الى العمامة بقضها وقضيضها ، اي الكلوثة وقطعة القماش المحيطة بها ، أما المدلول الثاني فيعالج قطعة

القماش وحدها ، وهى التى تلف عدة لفات حول الطاقةية « الكلوتة » غير اننا هنا سنعالج العمامة فى منظورها الكلى ، وفى عصر محدد هو العصر المملوكى ازهى عصور العمامة ، خاصة فى فترات ازدهاره ، اذ نلاحظ انه فى فترات الرواج الاقتصادى كان ذلك ينعكس على العمامة من حيث المضمون والشكل ، الدندشة والابهة ، وفى فترات القحط يتضاءل الحجم ، وتقل نوعية القماش ، ولان العمامة المملوكية مقسمة الى اقسام ، فلا بد من معالجتها كذلك ، اذن ، من أين البداية ؟ من أعلى المناصب ، من عمامة السلطان نفسه . .

العمامة السلطانية

لا نستطيع ان نتخيل سلطانا مملوكيا بدون عمامة . انهم يطلون علينا جميعا من ايام التاريخ البعيدة وفوق رؤوسهم عمامم متنوعة الاشكال والالوان ، لكن المهم ، اننا دائما فى مواجهة عمامة سلطانية فخمة ، صفرت او كبرت ، ان العمامة باختصار هى شعار السلطنة الرسمية ، وأول شىء يرتديه السلطان عند تنصيبه ، عمامة سوداء ، واللون هنا هو شعار الولاء للخلافة العباسية ، وعندما أرسل الخليفة العباسى ملابس التتويج الى الظاهر بيبرس كان أهم قطعة فيها هى العمامة السوداء المنسوجة بخيوط الذهب ، ونلاحظ ان السلطان كان يرتدى فى حفلات التتويج زى رجل دين ، وكان رجال الدين يرتدون أضخم العمامم حجما ولذلك حديث لاحق ، وعندما يخرج السلطان فى موكب كان يرتدى عمامة صغيرة ،

أسمها « تخفيفة » ، ويهتم ابن أياس بوصف هذه التخفيفة التى اشتق اسمها من فعل « خف » ، وكانت التخفيفة من الملابس الخاصة بالسلطان ، أو الامراء وحدث ان قاضيا أرغم على حضور حفل ساهر عند أحد الامراء ، ويذكر المؤرخون انه تجرد من ملابسه ، وهذا التجرد يعنى انه خلع عمامته الكبيرة ، وارتدى تخفيفة، عمامة صغيرة لا تليق بمكانته كرجل دين ، غير ان التخفيفة السلطانية كانت تنقسم الى قسمين ، تخفيفة صفرى ، وتخفيفة كبيرة كان السلطان يرتديها فى المناسبات فقط ، أطلق عليها الناس اسم « الناعورة » ، ومن أوصاف ابن أياس لها نلاحظ تطابقها مع شكل الساقية السورية المعروف بهذا الاسم ، حيث نجدها مسننة كترس الآلة ، وعندما يلبس السلطان التخفيفة الكبيرة فانها مناسبة كبرى ، يفرد لها ابن أياس سطورا عديدة ، يقول صاحب بدائع الزهور ..

« وفى يوم الاثنين رابعه طلعت الامراء الى القلعة على العادة . فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة بالناعورة، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بها الاتراك ، وكانت التيجان يلبسونها ملوك الفرس من الاكاسرة ، فصارت التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسلاطين مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء فى بعض الاخبار ان العمائم تيجان العرب ، وكان السلطان له نحو من أربعة أشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولاجلس على المصطبة التى يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج فمشى وجلس على المصطبة ،

فباسوا له الامراء الارض ، وهنـسوه بلبس التخفيفة
الكبيرة .. » .

واعتاد السلطان الغورى لبس تخفيفة صغيرة ، بل
انه يظهر بها فى أحد المواكب ، فى صفر من عام ٩٢٠ هـ ،
ويبدو انه كان هناك نوع مدور من التخافيف الصغيرة ،
ويبدو الغورى باحداها عند عودته من الاسكندرية فى
الخامس عشر من شهر ذى الحجة عام ٩٢٠ هـ (٣١
يناير ١٥١٧) ، ولم يكن ذلك يشير الاستياء فى عصر
الغورى ، بعكس ما كان عليه الامر قبل ذلك ، فى سنة
٩٠٧ هـ (١٥٠١ ميلادية) حضر السلطان محمد بن
قايتباى صلاة الجمعة وهو يرتدى (تخفيفة صغيرة)
فأثار استياء الامراء كلهم ، وكان السلطان يلبس العمامة
الكبيرة فقط ، ولا يسمح لاحد غيره بارتدائها ، وفى
لحظة نادرة كان السلطان يشعر بالرضا على أحد رجاله ،
عندئذ يهديه عمامة كبيرة ، يقول ابن اياس :

« وفيه أنعم السلطان على أركاس من طراباى الذى
كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقدمة ألف وجعل
له مرتبا على الاخيرة من غير اقطاع ، ورتب فى كل شهر
له ألف دينار وفى كل سنة ألفى أردب قمح ، ورسم له
بأن يقف فى المواكب فوق الامير طراباى رأس نوبة النوب ،
وأحضر له تخفيفة من تخافيفه التى بالقرون الطسوال
فألبسها له . وقلع من عليه وألبسه له ، فحصل له فى
ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان » (١) .

من ناحية أخرى كانت العمامة تتغير مع الفصول ،
فعند بداية الصيف بين الحادى عشر والستادس

(١) ابن اياس . الجزء الرابع ص ١٠٠ طبعة محمد مصطفى و كاله .

والعشرين من مايو يرتدى السلطان عمامة بيضاء اللون ،
ومع بداية فصل الشتاء ، بين السادس والتاسع
والعشرين من شهر نوفمبر . كان يرتدى العمامة السوداء ،
وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التي يغير فيها
جنود الشرطة والجيش أزياءهم الآن وكان تغير السلطان
لزيه ولبعامة من الأحداث الهامة التي يسجلها
المؤرخون ، وهناك لوحة مشهورة تمثل السلطان الفوري
وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التي يغير فيها
موجودة في متحف اللوفر الآن ، ويبدو الفوري فيها
مرتديا العمامة الضخمة ، « الناعورة » بقرونها الطوال ،
وتعتبر اللوحة أرشيفا حيا للعمائم ، كانت هناك عمامة
أخرى تحتل مرتبة كبيرة في الأهمية . وهي عمامة
الخليفة العباسي ، ولونها أسود . مدورة ولها طرف
« عزبة » يتدلى خلف الظهر ، واسم هذا الجزء الرفوف ،
وطوله نصف ذراع ، وعرضه ثلث ذراع : تلك هي عمائم
السلطنة والحكم والخلافة فماذا عن بقية العمائم ؟

الكلوتات والشرابيش

عمائم الأمراء أقل حجما بالطبع ، لها اسم خاص ،
مفرده « شربوش » وصفه المقرئزي بأنه يشبه « التاج » ،
يبدو مثلث الشكل ، وهو يوضع فوق الرأس بدون أن
يلف حوله قماش ، وعندما كان المملوك يرقى إلى رتبة
فارس ، كان يلبس العمامة من يدي السلطان ، ويبدو أن
الشربوش كان منتشرا في العصر الأيوبي ، وعصر المماليك
البحرية وأنه أصبح أقل انتشارا في عصر المماليك

الجراكسة ، وكان هناك سوق بأكمله اسمه سوق الشرايشيين حيث تصنع أغطية الرأس الخاصة بالامراء ، ومكان هذا السوق اليوم منطقة الفورية في القاهرة ، وقد استعادت احدى مدارس دمشق الاسم ، يقول ابن بطوطة انه نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشربشية ، كانت « الكلوتة » أخف من الشربوش ولكن تعادله في الرتبة والقيمة ، اذ انها كانت غطاء رأس الامراء أيضا ، ومع الزمن أصبحت رمزا للقادة والضباط الكبار ، وكان السلطان نفسه باعتباره قائدا أعلى للجيش يرتدي كلوتة صفراء ، وكانت الكلوتة بسيطة المظهر تشبه الى حد كبير الطاقية في عصرنا ، ولكن السلطان خليل بن قلاوون أصدر أوامره الى رجال عهده بارتداء « الكلوتة » المطرزة .

يقول القلفشندى فى صبح الاعشى (١) :

« فأما ما به تغطية رعوسهم ، فقد تقدم أنهم كانوا فى الدولة الايوبية يلبسون كلوتات صفراء غير عمائم ، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم ، فلما كانت الدولة الاشرفية « خليل بن قلاوون » رحمه الله ، غير لونها من الصفرة الى الحمرة ، وأمر بالعمائم من فوقها ، وبقيت كذلك حتى حج الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله فى أواخر دولته فخلق رأسه ، فخلق الجميع رعوسهم ، واستمروا على الخلق الى الآن ، وكانت عمائمهم صغيرة فزيد فى قدرها » .

لقد أصبح للكلوتة شأن كبير بعد عهد السلطان خليل قلاوون وحدث فى سنة ٧١٠ هـ (١٣٠٢ ميلادية) ان

(١) ج ٤ ص ٤٠ طبعة دار الكتب المصرية .

قبض على الأمير جيراى نائب السلطنة بالشام . فنزغنا
عمامته « الكلوتة » وألقيت على الأرض ، وألبسوه عمامة
صغيرة بدلا منها ، وكان هذا يعنى فقدانه لكل نفوذه ،
ثم تطور حجم « الكلوتة » وأصبحت ضخمة ، بها عدة
انتفاخات ، ويبدو ان ثمنها كان مرتفعا ، او أن هواية
جمعها وجدت عند البعض ، اذ يحدثنا المقريزى عن الوزير
عبد الله بن زنبور الذى وجدوا فى ثروته ستة آلاف
عمامة من طراز الكلوتة ! ، حدث تطور آخر فى شكل
« الكلوتة » خلال العصر الجركسى ، ولكنها استمرت
بنفس الخطوط الخارجية حتى نهاية العصر المملوكى فى
« ١٥١٧ » على أيدي العثمانيين ، ثمة عمامة أخرى
كانت تخص العسكريين فقط واسمها « سراقوج »
ويبدو ان أصله تترى ، وكان هناك نوع آخر من العمامات
« الطاقية » ، ولا تزال موجودة حتى اليوم فى الأحياء
الشعبية بمصر ، كانت فى العصر المملوكى مدورة
ومسطحة ، وارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريبا ، وفى
عصر فرج بن برقوق ارتفعت الطاقية ، عندئذ حدث
تغيير بسيط فى الجزء الأعلى منها فصنع على هيئة
قبة صغيرة كثر فيها الحشو بمادة الورق ، وزين بفراء
القندس ، ثم ضاقت الطاقية فى سنة ١٤٨١ عند القاعدة
وصنعت من لونين مختلفين ، والطاقية بقيت الى يومنا
هذا ولكن فى شكلها البسيط الاول ، وكان هناك نوع
آخر من العمامة ، اسمه « زمط » ويعترف دوزى فى
المعجم بأنه يجهل هذا اللباس ، لكن ماير فى كتابه
« الملابس المملوكية » (١) يوضح انه غطاء الرأس ، ويبدو

(١) الملابس المملوكية - ماير - ترجمة صالح الشيتى - القاهرة ١٩٧٢

انه كان عمامة للفقراء ، لكن فى فترة معينة صدر قرار بتحريم لبسه على الفلاحين . ثم اصبحت الزمط جزءا من الزي العسكرى الشريكى ، وعندما كان يصدر الامر بمعاقبة أحد الامراء كان يوضع على رأسه زمطا قديما .

رجال الدين

أضخم العمائم حجما كانت من نصب رجال الدين ، وهى أهم جزء فى ملابسهم ، كما أنهم لا يرتدون غيرها كغطاء للرأس ، ولا زالوا حتى اليوم ، وقد أطلق عليهم « المتعممون » نظرا لانهم من المستحيل ان يظهروا بدون عمائم ، وكانت عمائم رجال الدين تستند الى الطبقة التى ينتمى اليها صاحبها فى المركز الاجتماعى ، وفى القرن الرابع عشر كان من المألوف أن يرتدى رجال الدين عمائم كبيرة شاذة فى حجمها ، وكان لبعضها ذوائب طويلة (١) وكان رجال الدين الفقراء يرتدون عمائم أقل حجما ، وكان خطيب الجمعة يرتدى عمامة سوداء يوضع فوقها طرطور أسود ، وكان للاشراف ، أى سلالة النبى عليه الصلاة والسلام عمائم خاصة تميزهم عن غيرهم ، وقد بدأ هذا التمييز فى عصر السلطان شعبان عندما أمرهم بتثبيت قطع قماش خضراء فى عمائمهم ، ثم تطور الامر عندما أصبحت العمامة كلها خضراء . ولا زال رجال الدين من الاشراف يرتدون العمامة الخضراء حتى اليوم ، خاصة فى ريف مصر ، وحتى سنة ستمائة لم يكن للعمامة علاقة بالاديان الثلاثة ، ولكن الوضع تغير بعد ان

(١) الملابس الملوكية - ماير - ترجمة صالح الشيتى . القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٠

جاء الى مصر وزير مغربى فاجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه الامير سـلار . وتحدث معهم فى أمر اليهود والنصارى ، وهاله ما رآه من تمتعهم بالحقوق ، وقال انهم عندهم فى غاية اللل والهوان ، فآثر كلامه عند أهل الدولة ، ولا سيما الامير بيبرس الجاشنكير فأمر ان نغير عمائم النصارى واليهود ، فيلبس النصارى العمائم الزرق ، واليهود العمائم الصفـر ، ولم يستمر هذا الوضع كثيرا غير ان السلطان الصـالح ابن الملك النـاصر أمر فى سنة ٧٥٥ بمنع اليهود والنصارى من عدة أمور وألزمهم بارتداء العمائم الزرقاء والصفراء ، ويبدو ان العمائم التى كان يرتديها أفراد الشعب كانت تستخدم لغرض آخر وهو استعمالها كمكان لحفظ النقود ، وهذا مستمر حتى الآن فى الريف ، عندما تفاجأ بأحد الفلاحين قد مد يده الى عمامته وأخرج من طياتها ورقة نقدية ، ولهذا السبب كثر خطف العمائم فى الطرقات أثناء الاضطرابات التى كان يتسبب فيها المماليك ، اذ أنهم كانوا يخطفون أكياس نقود ، وليس مجرد عمائم ..

النساء

فى شهر محرم سنة ٦٦٢ هجرية ، صدر مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمامة ، ومن الواضح ان ارتداء النساء للعمائم كان مشار جدل شديد بين الفقهاء ورجال الدين ، ولكن العمامة لم تكن زيا شائعا للنساء ، انما كن يرتدين قماش يطلق عليها اسم « العصابة » وهو

اسم لا زال يطلق حتى الآن على الطرح والمناديل الحريرية
فى الاحياء الشعبية المصرية ، لكن عصب
النساء فى العصر المملوكى كانت تحلى بالجواهر ،
والزخارف الغنية ، وخلال النصف الثانى من القرن
الخامس عشر حل « الطرطور » محل العمائم ، وفى رجب
سنة ٨٧٦ هـ ، أصدر السلطان قايتباى أمرا بوجوب على
كل امرأة ان تمتنع عن ارتداء « عصابة » أو « سراقوس »
من الحرير ، وصدرت الاوامر لرجال المحتسب بأن
يضربوا أى امرأة ترى فى الاسواق مرتدية هذه العصب ،
وسرى الخوف الى النساء فصرن يخرجن حاسرات
الرءوس ، وداخل منازلهن كن يرتدين غطاء الرأس
المحرم .

لقد ولى العصر الذهبى للعمامة مع انتهاء العصر
المملوكى عام ٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م ، مع الفزو العثمانى ،
وعندما جاء ادوارد لين فى بداية القرن التاسع عشر
لم يكن تبقى الكثير من طبقات العمائم وأنواعها ، انه
يصف لنا غطاء للرأس يكاد يكون هو الموجود حاليا والذي
يرتديه رجال الدين المسلمين قلنسوة قطنية صغيرة
مطابقة للرأس ، ثم طربوش أحمر من الجوخ ، ويلف
بقطعة طويلة من الحرير ، اندثرت العمامة الزاهية اذن ،
الناعورة ، والكلوتة ، والشربوش ، وأصبح لفظ العمامة
يعبر الآن أحيانا عن السخرية ، خاصة عندما يقول الناس
« أصله لبس العمة » أى خدع ، لانه مففل ، أصبحت
العمامة توحى بالفقلة والبله ، بعد ان كانت رمزا للسلطان
وللفضب وللجاه ، ولطبقة الانسان ، ولديانته وسبحان
مغير الاحوال !

الخيول المملوكية

القاهرة المملوكية .

نتجه الى ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ،
ربما كان التجول فى سوق الخيل مدخلا طبيعيا الى
عالم رحب ، وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال
العصور الوسطى ، لم يتغير موقع هذا السوق طوال
العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدالين والمنادين ،
أنواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة على ثلاثة أقسام
رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها ، وأغلاها قيمة ،
مطلوبة للسباق ، وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ،
ونجد ، واليمن ، والشام ، والعراق ومصر وبرقة . النوع
الثانى ، تركى أو عجمى وكانت تسمى الهمساليج ، أو
الأكاديش ، مرغوبة لصبرها على السير العثيث ،
وسرعة المشى ، النوع الثالث مولد بين العربية والاعجمية ،
إذا كان الأب عجميا والأم عربية قيل له هجين ، وهى
وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الافرنجية فهى
أفضل الأنواع ، وأرخصها ثمنًا هنا ، ولا يقبل عليها
أحد .

الخيول العربية نفسها تنقسم الى عدة أنساب ،

الحجازى اشرفها ، والنجدى ايمنها ، والمصرى افرها ،
والفربى انسها ، وعندما ترد الى السوق خيول مؤصلة
قائما تعرض على السلطان ، كان السلاطين مهتمين جدا
باقتناء انفس الانواع ، وانقى الانساب ، كان الناصر بن
قلاوون شغوفا بجلب الخيول العربية ، وبسببها بالغ
فى اكرام العرب من آل مهنا وآل فضل المتخصصين فى
احضارها له ، ولم يكن يبخل بأى ثمن ، حتى آتته
العرب بأجود الانواع ، ولم تبذل طائفة الا قادت اليه
عناق خيلها ، وافرد لها دفاتر تسجل انساب الخيل ،
كما تسجل انساب الادميين ، وعندما مات ترك خلفه
ما يقرب من ثمانية آلاف فرس فى اصطبلاته ، اما
السلطان برقوق ، الذى هدد تيمورلنك بخيوله البرقية
العربية - فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس . كان اقتناء
الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة ، والجاه ،
ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكى على دعامتين ،
الفارس ، والفرس ، ربما كان هذا سببا قويا فى أهمية
سوق الخيل ، وقربه من قلعة الجبل ، مركز الحكم ،
ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، فى السوق نرى ألوانا
عديدة ، غير ان الألوان الاساسية أربعة ، وما عدا ذلك
متفرع منها ، الاول : اللون الابيض ، وكان سلاطين
المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها ، الفرس البوز ،
ويذكر ابن اياس فى بدائع الزهور ان السلطان الفورى
عندما خلع على قرقد بيك العثمانى أهداه فرس بوز
بسرج ذهب وكنبوش ، ولا يذكر خروج السلطان الفورى
فى المواكب الا ممتطيا فرس بوز ابيض ، الثانى : هو
الاسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها

«أدهم» ، والثالث : هو اللون الاحمر ، ويسمى الكميت ،
واللون الرابع : هو الاصفر ، ومعرفة ألوان الخيل ضرورية
بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية ، وأحيانا
كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون
معين في كل يوم ، وجرى العرف أن يكون ركوب الادهم
أى الاسود يوم السبت ، ويوم الاحد للأبيض ، والاثنين
للأخضر ، والثلاثاء للكميت ، والاربعاء للابلقى وهو ما كان
بياضه بين بين ، ويوم الخميس للاشقر ، ويوم الجمعة
للمحجل ، ولهذه الالوان علاقة بالتفاسل ، ولا يقتصر
التفاسل والتشاؤم على اللون العام للفرس ، وانما يتعلق
الامر ببعض العلامات فى جسده ، فالفرقة أى البياض
الذى يكون فى وجه الفرس ، اذا استدارت أو كانت
تشبه حرف الحاء فانها تدل على اليمن والبركة ، واذا
أصاب البياض خذا دون الآخر ، فان الفرس يكون
مكروها ، ويتشائم به ، كذلك ان غطت عينا دون الاخرى ،
فيصبح من المتوقع ان تقتل مع صاحبها ، أما اذا غطت
العينين فانها تقهر مع فارسها ، وان مالت الى اليمين
تدل على الشؤم ، وإلى اليسار فانها تدل على المكاسب ،
وأن وصلت الى الانف فانها تدل على البركة والخير ،
واذا كان هناك لون يخالف لون الفرس فى رجلين مختلفين
فانه مكروه ، وفى سنة ٨٠٢ هـ ١٣٩٩ م ، كسر الامير
ثم وسقط أسيرا ، واستفسر المؤرخ ابن تفرى
بردى عن سبب وقوع الامير عن فرسه ، ثم أسره ،
فقالوا كان فى فرسه شؤم ، وأشاروا الى هذه العلامة ،
وقالوا ان أصحابه نهوه عن ركوبه فأبى .

فى سوق الخيل نلاحظ ان المشترين والفاحصين

يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها ، والتفرس له قواعد ، فلا بد أن ينظر الى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجرى ، والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، واذا نظر الانسان الى آثار قوائمه وقت جريه ، وقاس ما بينهما ، فاذا كانت ستة أذرع ، يكون فرسا سباقا ، واذا كانت المسافة أربعة أذرع أو ثلاثة فهو بطيء ، أما من أربعة أذرع الى خمسة فيكون متوسط الجرى ، كما يجب أن يكون صافيا عند الصهيل ، فهذا دليل صحة الرئتين ، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها ، وسجلتها كتب الفروسية .

اذا ما فرغنا من التجول فى سوق الخيل ، فاننا نصعد قليلا الى القلعة ، الى باب السلسلة ، هنا أكبر الاصطبلات فى البلاد ، اصطبل السلطان بما يحتويه . .

الاصطبل السلطاني

. . البناء مسقوف داخل القلعة ، جيد التهوية ، يضم عدة منشآت ، اولها المكان المخصص لابواء الخيول ، الارض مفروشة برمل ناعم ، أو بأعواد من خشب ، وذلك حتى اذا راث الفرس أو بال فيردم ، ويأتى بغيره رملا يابساً ، أو أعواد أخرى نظيفة ، والتراب غير مستحب لأن البول اذا اختلط به يحدث رائحة قذرة ، لأن الرطوبة تلين الحوافر بخلاف الارض الصلبة ، سواس الاصطبل لمسحون أبدانها صباح كل يوم وينظفونها ،

كما أنهم مسئولون عن تمرير الفرس بعد المجهود الذى تبذره فى الجرى لتليين أعضائها ، من المباني الملحقة بالاصطبل ، الركاب خانا ، أى المكان الذى تحفظ فيه معدات الركوب ، من سروج ، واللجم ، والكنابيش ، والمراكيب ، وأردية الخيول ، والمخالي ، كثير من هذه المعدات محلى بالذهب ، أو الفضة ، ويقول المقرئى انه رأى بعض الركاب مصنوع من الذهب الخالص ، المسئول عن هذا الجزء هو المهتار (كبير الفلمان) ومعه عدد من الرجال لمعاونته ، وكان الاصطبل يحتوى على ما يلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل كامل ، يسمى الاصطبل وملحقاته بالاصطبلات الشريفة ، أما ما يخص الامراء فيطلق عليه الاصطبلات السعيدة ، وينقسم الاصطبل السلطانى الى عدة أقسام :

- الاصطبل الخاص وبه الخيول الخاصة بالسلطان .
- اصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبة الكرة ، أو الرياضة .
- اصطبل الجوق ، وبه خيول الممالك التابعة للسلطان .
- اصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة .
- اصطبل الجشاء ، وبه الخيول المهرمة التى حان أجلها .
- اصطبل البريد ، وبه خيل البريد .

ومن المباني الملحقة ، الجامع السلطانى بالاصطبل ، ولأن المكان يأوى الخيول رمز القوة ، فقد كان السلاطين يتزلون اليه ، ويجلسون فوق المقعد المطل عليه ، ويديرون أمور الحكم ، ويسبق نزولهم موكب الاصطبل

الذى يتكرر مرتين فى الاسبوع ، السبت ، والثلاثاء ، وبدأت هذه العادة منذ أيام السلطان برقوق ، وفى زمن السلطان تمرىفا الظاهرى سار المنادى معلنا بأن كل مظلوم أوله شكوى عليه الوقوف بالاصطبل يوم السبت والثلاثاء للنظر فى شكواه . وكثيرا ما كانت تنفذ العقوبات الفورية فى الاصطبل ، يقول ابن آياس انه فى جمادى الآخرة سنة ٨٧٢ هـ ، تغير خاطر السلطان الظاهر ابن سعيد تمرىفا على القاضى خروف فضربه بين يديه بالاصطبل ضربا مبرحا ، كما تمت مبايعة السلطان فى الاصطبل أحيانا ، فى سنة ٧٨٤ هـ ، حضر الخليفة المتوكل على الله ، وقضاة الاسلام الأربعة وعلماء العصر الى الاصطبل السلطانى ، وقلدوا برقوق أمور العباد والبلاد ، وفى سنة ٨٠١ تكرر نفس المشهد بالاصطبل عندما بويى فرج بن السلطان برقوق بالسلطنة ، وتقلد أمور المسلمين ، كذلك قايتباى العظيم بويى فى الاصطبل ، وكثيرا ما تم عرض الممالك فى الاصطبل ، كما جرت فيه مشاورات عديدة لتوزيع الثروات ، أو لحسم المنازعات ، وكانت اصطبلات الأمراء تعكس كل منها مدى أهمية الأمير وقوة مركزه ، ونفوذه ، بعدد ما تحتويه من خيول ، ومسجد السلطان حسن هذه التحفة المعمارية القائمة فى مواجهة القلعة بين مدان اصطبلين كانا يملكهما الأمير يلبغا اليحياوى ، والأمير الطنبا الماردانى ، وكان نواب السلاطين بالشام يمتلكون اصطبلات ضخمة ، وكثيرا ما كان السلطان ينفق عليها ، كما حدث فى زمن السلطان بيبرس ، ومن تلاه من ملوك .

وظائف الاصطبل

المسئول الاول هنا هو أمير آخور كبير ، وآخور كلمة فارسية تعنى العلف أو العليق ، أى انه أمير العلف ، ولا يتولى الوظيفة الا أمير مقدم ألف ، أعلى رتبة بين المماليك ، ولا يتولاها الا أهل الثقة ، بل ان هذه الثقة وصلت الى حد ائتمانهم على حريم السلطان ، كما حدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون عندما ائتمن أمير آخور على حريمه ، وأمره بخروجه معهن الى الحجاز ، كما انه زوج الامير يشبك أمير آخور ابنته ، كما كان السلاطين يسيرون فى جنازات آخورياتهم ، وفى أيام الفتن كان الاصطبل أول ما يتعرض للنهب ، وذلك لكسر شوكة صاحبه ، وتجريده من قوته ، حدث فى زمن السلطان المنصور بن بكر بن الناصر محمد أن تكتل الأمراء ضده ، وما أن علم بذلك حتى أسرع الى الاصطبل وأمر أيدغمش أمير آخور بشد الخيل للحرب ، لكن الامير أخبره انه لم يبق فى الاصطبل غلام أو سائس ، عندئذ علم السلطان ان أمير آخور قد خذله ، وانه هزم ، كذلك عهد السلاطين الى أمراء آخورياتهم بكثير من المهام السياسية والعسكرية ، وذلك لحنكتهم وقدرتهم ، وفى سنة ٨٠١ هـ ، توجه سودون الطيار الامير آخور الى الشام لكشف اخبار ابن عثمان ، وفى سنة ٩٢٠ هـ عين السلطان الفورى الامير قانى باى أمير آخور قائدا للتجريدة التى توجهت الى حلب ، ومن قبل فى سنة ٨٠٣ هـ توجه أمير آخور الى تيمورلنك بكتاب السلطان .

وكانت الوظيفة ترشح صاحبها ليلى مناصب أعلى ،
 حتى السلطنة نفسها ، فالسلطان برقوق كان أمير
 أخور ، والسلطان يلماي أيضا ، ولكن أحيانا كان أمير
 أخور يرقى الى منصب أكبر ، ولكنه من الناحية العملية
 أقل نفوذا ، وحدث ذلك للأمير جقمق العلاني في سنة
 ٨٣٧ هـ عندما رقى الى أمير مجلس ، وأشعار عليه
 أصحابه بأن أمير أخور كانت أفضل له من ناحية المنفعة
 والنفوذ ، وإذا كان لابد من التغيير فليختار أمير سلاح
 لتعوضه هذه الوظيفة عما فاتته ، وظل يسعى حتى تحقق
 ذلك . يعاون أمير أخور في إدارة الاصطبل السلطاني
 موظفون آخرون لهم درجات ومراتب ، منهم الراجور
 وهذه الكلمة مركبة من لفظين فارسيين معناهما ، كبير
 العلف ، وهم كبار المسئولين عن علف الدواب ، أما
 الغلمان وسواس الخيل والاسطوات فهم المتصددين لخدمة
 الخيول مباشرة ، يقومون بتنقية العليق ، ويطعمونها
 بأمانة ، لانه لا لسان لها يشكوه الا الله ، ولا تسجل
 كتب التاريخ حوادث اختلاس من العلف ، والله أعلم ! ،
 وكان السواس يعلقون أحرارا في رقاب الخيول تشتمل
 على آيات من القرآن الكريم ، وقد عاب أحد مؤلفي كتب
 الفروسية عليهم ذلك ، لانها تتمرغ في القدارة ، لا تخرج
 الخيول من الاصطبل الا مرتدية مايتفق ، فكل لون زى من
 العبي والكنابيش ، الفرس الاسود له العباءة البيضاء ،
 والدوالي الابيض ، والاشهب له العباءة السوداء والدوالي
 الاسود ، والاحمر له العباءة الحمراء ، والاشقر له اللون
 العسلى ، والاصفر له العباءة التى من نفس لونه ، أما
 اذا كان الفرس بوز اى ابيض ، فان لون العباءة يكون
 بنفسجيا ، واللون الاخير يطل علينا به جواد السلطان

الفورى فى مواكبه وخرجاته التى وصفها ابن اياس ،
ايضا فان الوزن المحدد لكل فرس معدود ، وقد فضل
العارفون بالجياد المائة وعشرين ، فلا تشمل وزن الفارس
والسلاح ، والعدد ، حتى لا ترهق الفرس ، وهذه
الخيول مدربة عبر عناء طويل وصبر ، فالخيول ذات
نفوس عزيزة أبية ، وليست كغيرها من البفسال أو
الحمير ، ان فرس السلطان دربت على أن تحمسل
البراءة بالجلال ، وتعليق الاجراس ، وحمل الصولجان ،
والخوض فى الماء ، وتخطى السواقى ، والقعود فى رفق ،
وبقية الخيول مدربة على دخول الازقة ، والاسواق ،
والمرور بين الجماعات ، والنظر الى الاعلام ، والاشياء
الضخمة العجيبة ، كالافيال ، والاسود ، والزراف ،
واذا خاف لا يضرب حتى لا ينفر ويجزع ، انما يؤخذ
برفق ، كما انها مدربة على الدوران برفق ، والقعود ،
والانعطاف يمنة ويسرة ، وهناك قواعد دقيقة تنظم عملية
اللجم ، وتحدد أنواعها ، كذلك السروج ، وعملية انعال
الفرس ، وأحيانا كانت الامور المالية تنعكس على الناس ،
لقد كان الممالك يبالغون فى كسوة خيولهم ، ومن هذه
فرض بعض السلاطين ضريبة خاصة بالعبي ، لكن
السلطان الناصر محمد بن قلاوون ألفاها سنة ٧١٠هـ ،
كما كانت بعض الاضطرابات سببها اكل الخيول من تبين
وشعير ، كان يصرف للملوك جراية من الخبز لطعامه ،
وجراية من الشعير لاطعام خيوله ، فى سنة ٨٥٩ هـ ثار
الممالك الجلبان وأشاعوا الفسوضى وتوجهوا الى بولاق
ونهبوا شون الامراء ليحصلوا على الشعير لخيولهم ، وفى
سنة ٨٦١ هـ كانت أحد مطالب الممالك من السلطان
أن يكون الشعير والتبن مغريلا ، وفى سنة ٩٢٠ هـ

انتقد المماليك السلطان الغورى لان العلق الخاص بالخيول مسوس لا تقبل عليه الجياد ونزل السلطان عند رغباتهم وأمر بصرف العليق المغربل لهم ، وفى الربيع كانت الخيول تخرج الى المراعى لتأكل البرسيم ، وكان هذا بسبب بعض الخطورة أحيانا ، فى سنة ٧٥٥ هـ ، عندما هزم السلطان حسن من مملوكه يلبغا ، ألبس ممالিকে فى القلعة ، لكنه لم يجد لهم خيلا ، لان الخيول كانت ترعى فى مراعى الربيع ، ولكن فى حالة المخاطر الخارجية كانوا يقصرون الفترة الزمنية ، أو يستدعون الخيول من مراعيها ، وفى فصل الصيف اعتادت الخيول على الدريس ونظرا لاهميته عمد المماليك الى تخزينه ، وفى سنة ٩١١ هـ ، وعندما بدأ الشاه اسماعيل الصوفى يستعد لمهاجمة البلاد ، أكثر المماليك من تخزين الدريس وصاروا يمسكون الناس لنقله ، وسرى الارتباك بسبب ذلك ، وقال العامة : «اهرب ياتعيس ، والا يحملوك الدريس» ، وفى سنة ٩٢٢ هـ عندما أشيع اقتراب ابن عثمان من بلبس صدر أمر بإحراق الشون المحتوية على التبن والدريس والقمح والشعير ، حتى لا ينهبها عسكر ابن عثمان ، فتزداد خيولهم قوة . وكان المصروف على عليق الخيول مبالغ ضخمة ، السلطان بيبرس كان يصرف على دوابه ودواب من يلوذ به فى كل سنة ، ثمانمائة ألف درهم ، وكانت خيوله تستهلك خمس عشر ألف عليقة فى اليوم الواحد ، أى ستمائة أردب ، والسلطان برقوق ، بلغ عليق خيوله فى الشهر الواحد أحد عشر ألف أردب شعير وفول ، وكان الذى يشرف على كل هذه الشئون هو أمير أخور كبير . . .

القصة

نتجه الآن الى احدى ساحات السباق ، ان الفروسيه ترتبط ارتباطا وثيقا بالرياضة ، وسباق الخيل اهم ألوان الرياضة ، واكثرها استعراضا للفوة ، كان السلطان بيبرس يأمر عساكره بالركوب الى الميدان الاسود تحت القلعة ويتراکضون فيه ، وجرت على ذلك عادة السلاطين من بعده الذين خصصوا ساحات متعددة للسباق . واعتاد العرب ان يسموا ساحة السباق بالحلبة ، أما موضع المسابقة فيسمى بالمضمار ، والمدي يسمى غايته ، وتكون الغاية طبقا لما يتفق عليه وكانوا يجعلونها مائة غلوة . والغلوة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ، وقد جعلها من مواضع معلومة الى مواضع معلومة وهذا ما طبقه المماليك ، ويذكر المقرئى انه رأى بميدان القبق عواميد من رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عامودين مسافة بعيدة ، وانه كان بين قبة الامام الشافعى وباب القرافة ميدان تتسابق فيه الامراء والاجناس ، وكان المماليك يتراهنون كالعرب ، واسلوب السباق الذى نراه فى الساحة ، يتلخص فى وقوف الخيل فى الميدان . ثم تصف على المقوس ، اى الحبل الذى يمد فى صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالشط المنظوم ، ثم ترفع المقوس كأسرع ما يكون ، فتنطلق عشرة ، عشرة ، دفعة واحدة ، والسابق يحتاج الى فارس ذكى ، عارف بأحوال الخيل ، خفيف الجسم ، قليل اللحم ، فى عصر السلطان الناصر اهداه الامير العربى مهنا فرسا شهباء للسباق ، وطلب الا يركبها عند السباق الا بدوى قادها ، وجاءت هذه

الفرس في مشهد طريف تحفظه لنا كتب المقریزی وابن
تفردی بردی اد كان یركبها بدوی بدون سرج ، وقادها
عبر السباق وهو یرتدی قميص وطاقیه فقط ، وسبعت
كل الخیول .

هناك ساحات أخرى كان الممالیک یلعبون فیها
الكرة أو الجوكان ، وهی اللعبة المعروفة الآن باسم بولو ،
اهتم السلاطین بها وخصصوا لها الخیول ، والموظفین ،
كان الواحد منهم یسمى الجوكندار ، ای الی یحمل
الجوكان ، وهی عصا مدهونة طولها نحو من أربعة
أذرع ، ویرأسها خشبة مخروطية محدودة فیض عن
نصف ذراع ، ویقسم میدان اللعب بخطوط بیضاء ،
ویقف فرسان الممالیک بید كل منهم عصا طويلة ، ویحاول
كل منهم جذب الكرة الی موضع فی وسط المیدان ،
وكان المهزوم یقیم ولیمة كبيرة ، وأحيانا كان السلطان
یتحمل نفقاتها تخفیفا عن المغلوب ، وقد حدث ان توفی
الملك السعید محمد بن الظاهر بیبرس عقب تعثره
بفرسه أثناء لعبه بالكرة عام ٦٧٨ هـ .

الفرسان

كان تدرب الفارس یبدأ منذ أيام الصغر ، فی
البداية یعلمونه القراءة والكتابة ویلقنونه آیات القرآن ،
والفروض الدینیة ، ویلقنونه الاخلاق المثالیة ، وفی
المرحلة التالیة یؤخذ المملوك بالشدة ، فیتعلم السباحة ،
واللعب بالسیف ، والضرب بالرمح والقذف بالاطواق .
ورکوب الخیل ، ویبدأ تعلیمه الخیل بتعوده علی الوثوب
والنزول علی تمثال الفرس من الطین والخشب ، فان

أتقنه جعل على التمثال سرج ، فان أتقنه ، ارتدى السلاح
ووثب به ، ثم يبدأ الوثوب على فرس عارية من السرج ،
ثابتة ، فاذا حذق ذلك تدرب على ركوب فرس مسرجة ،
وطرق أخذ الاعنة أو امسك الرمح ، فاذا اكتسب
الخفة ، تمرن على السيوف شيئا فشيئا ، حتى يصل
الى الركض بالفرس ، ثم يتمرن على النزول والركوب
من الفرس أثناء ركضه ، أو القفز خلف فارس راكب ،
ثم يتدرب على الالتفات والدوران ودخول البرجاس ،
وعند بروز مواهب المملوك ، فانه يشترك فى مبارزة أو
سباق ، وعند ثبوت شجاعته تكون مكافأته أن يعتق وترد
اليه حريته ، ويوكل اليه امر احدى الوظائف ويكتب له
اقطاعها ، جزء من الارض يستغله كما يشاء ، ويمنح
خيلا وقماشاً ، ويترقى فى سلك الوظائف حتى يصل
الى ما شاء له حظه ، وكثيرا ما جنح بعضهم الى مطالعة
العلم ، ودراسة الادب ، أو كتابة الشعر ، وشجاعة
الفرسان المماليك ليست فى حاجة للبرهنة عليها ، وأمامنا
حروبهم خلال فترة دولة المماليك البحرية وايقاعهم
بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود أوروبا ، وهزيمتهم للتتار
الذين أشاعوا الرعب فى العالم ، ومن أزهى مشاهد
التاريخ وأكثرها اثارة للحنين ، والخيال ، وصف ابن
أياس والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، وغيرهم لركوب
فرسان المماليك ، ونزولهم عن القلعة ممتطين خيولهم
بينما تسمع قعقات أسلحتهم ، وتبهر العيون ألوان
جيادهم ، وأرديتهم ، والكنابيش المطعمة بالذهب ، وتلك
المنبهاة بالقوة والفروسية .

الحرب

بعد الفارس سنوات من أجل لحظات أو أيام قليلة عندما تنشب الحرب ، كذلك الخيول ، وكما يتوزع المحاربون على أقسام الجيش المختلفة ، فان الجيساد كذلك ، هناك خيول النوبة ، وتخص السلطان ، والقواد ، وهي مسرجة دائما ، فى الليل والنهار ، تقف فى أقرب مكان من السلطان احتياطاً لكل مفاجأة .

وخيول الطلائع ، تخصص للاستكشاف ، ولا بد ان تكون من اجود الانواع ، سليمة الحوافر ، لا تجمع .

وخيول السرايا ، تضم أنواع ممتازة ترسل للاغارات السريعة على العدو ، وسميت بالسرايا لانها تسرى بالليل ، أما خيول الكمين ، فيجب أن تكون قليلة الشغب ، لا صهيل لها ، ولا حمحمة ، صابرة ، لا تضجر ، حسنة الاخلاق ، لا سعال بها ، ولا وهن ، ولا بد أن تكون كلها ذكورا أو أناثا ، اذ أن اجتماع ذكر الخيل وأنثاه ، ربما أثار الجلبة .

أما الخيل الطواشى ، فهي صعبة الانقياد ، التى لا تقع منها ، وتلك لها وظيفة فى الحرب ، اذ تضرب بالسياط ، وتدفع بالضجيج صوب مخيم العدو لاشاعة الرعب فيه تمهيدا لهجوم الفرسان عليهم ، ويتردد تعبير جرائد الخيل كثيرا فى كتاب ابن اياس بدائع الزهور ، وتلك تستخدم لاتباع المنهزمين ، ومطاردتهم .

الركوب

وفى أيام السلم ، يتم الركوب وفقا لتقاليد ونظم ،

أول المواكب ، موكب تقليد السلطان ، تقدم اليه فرس النسوبة بسرج ذهب ، وكنبوش زركشى ، وإذا هم بالركوب يقرأ الفاتحة ، وعند وضع رجله فى الركاب يقول : « بسم الله سبحانه الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون » . ويخرج راكبا والامراء مشاة بين يديه الى ظاهر القاهرة ، حيث يلبس خلعة السلطنة ، ثم يدخل من باب الفتوح ، او باب النصر ، والوزير بين يديه راكبا فرسه حاملا عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر فوق رأسه .

وكان هناك موكب الركوب فى العيدين ، ومن شعاراته أن يكون فى عنق فرس السلطان ، رقبة من حرير اصفر ، وكانت الفاشية تحمل بين يدي السلطان وهى غاشية سرج محلاة بالذهب ، يحملها الركبدار ، يرفعها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وأمام السلطان أيضا يركب الجفتاوات ، وهما اثنان من موظفى الاصطبل متقاربان فى السن ، عليهما قباءان اصفران ، وعلى رأسيهما قبعتان مزركشتان وتحتهما فرسان أشهبان يشبهان فرس السلطان ، كأنهما أعدتا لركوبه ، ومن المواكب الأخرى التى يركب فيها السلطان موكب الاصطبل ، ومواكب الكرة ، وموكب كسر الخليج ووفاء النيل ، وموكب دوران الحمائل ، وموكب الصيد والاسفار .

وكان كبار الامراء يركبون الخيول النفيسة أما اتباعهم فيركبون البغال ، كذلك كان أصحاب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء يركبون البغال ، وان كان يسمح للمتعممين بركوب الخيل واقتنائها كمظهر من مظاهر

احترامهم ، اما عامة الناس المسلمين ، فيركبون البغال ،
اما اهل الذمة من نصارى ويهود فكانوا يركبون الحمير .



نعود الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ولا تزال
دلائل عديدة تكشف أهميتها ، فالسلاطين اوصوا
مماليكهم ألا يقفوا فى أسواق العطارين ، والقماش ،
والصاغة ، ولكن يجب أن يقفوا بسوق الخيل ، أو سوق
السلاح ، أو سوق الكتب .

ولان سوق الخيل يتضمن العديد من معانى الجهاد ،
ولان السلاطين يؤمنون ببركة الخيل ، فقد جرت عاداتهم
على الاحتفال بشفائهم هنا ، واذا مرض عزيز لديهم ،
فانهم يأمرؤن ببيع أحد الخيول الثمينة بالسوق ،
والتصدق بثمنه على الفقراء ، هكذا فعل ، السلطان
برقوق ، والاشرف برسباى ، والسلطان خشقدم ،
والمؤيد شيخ ، والسلطان الكامل .

والآن السوق قريبة من القلعة ، فكثيرا ما وقع فيها
العديد من الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية ، فى
سنة ٧٤٢ هـ ، تجمع أفراد من الشعب بسوق الخيل ،
وطالبوا بدهابهم الى الملك الناصر والعودة به ، وفى
سنة ٨٤١ هـ عندما مرض السلطان برسباى وأصبح
احتمال موته قريبا ، تجمع المماليك بسوق الخيل تحت
القلعة ، وتوجد أسواق أخرى تكمّل سوق الخيل ، منها
سوق الهمازين ، لبيع المhamيز والتى صنع بعضها من
الذهب أو الفضة ، وكان هذا نادرا ثم بطل مع مرور
السنوات ، اما سوق اللّحميين فتباع فيه آلات اللّحم

مما يتخذ من الجلد ، وكان بعضها يصنع من الجلد
البلقارى الاسود ، أما سوق الجوخيين فمخصص لبيع
الجوخ المستورد من بلاد الفرنجة ، وكان يصنع منه ثياب
السروج . .

وتفارق عالم الخيول ، وسوق الخيل ، وكل ما يتعلق
بها ، بعد ان طواها الزمن ، وهان أمرها ، وأصبحت فى
أحوال عملتها تجر العربات الكارو المحملة بالاثقال ، وتسام
العذاب ، وفى أحوال الحظ ، تستخدم كحلبة راكدة فى
المواكب ، وبعض الاستقبالات الرسمية .

أسواق القاهرة العربية

للسوق العربية هندسة بناء خفية ، وتستتر خلفها رؤية للحياة ، وللتجارة ، وللعلاقات بين البشر ، وفيها تتشابك المصائر ، وحتى زماننا هذا تحتفظ القاهرة بأسواق متكاملة لم تنل منها العمارة الحديثة ، أو زحف الخرسانة ، بل ان الفلسفة الخفية انتقلت الى الاسواق العصرية التى تفرق فى بحر من النيون الصناعى .



.. تتوحد الظلال ، والروائح ، ومنحنيات الطرق ، وملامح الانتظار ، والرغبة ، تماثما كما تتشابه الملامح البشرية ، فى الاسواق العربية ، فى القاهرة ، الغورية ، والحمراوى المثل بالمتوايل والعطور ، وخان الخليلى مجمع التحف وآيات الابداع الانسانى ، والتربية ، لا نأى عن الخطوط والقسمات عندما ننتقل الى سوق الحميدية ، الممتد ، الطويل كقطار يتحرك فى ثبات عبر محطات متوالية من الزمن لا تنال من معاله ، وأرضيته المفروشة بظلال السقف المعلق ، كذلك سوق الشورجه فى بغداد ، والسوق الرئيسى فى البصرة ، والسوق

البديع المفروش بضوء خفى المصدر فى اربيل ، هذا
ما أتيح لى أن آراه ، وان أعاشه ، أما ما لم أشاهده فى
الرباط أو تونس أو الجزائر أو عمان ، أو اليمن ، فلا
يشى باختلاف كبير ، انما تؤكد اللوحات عناصر
التشابه .

الارزاق على الله

يحدثنا المقريزى عن أسواق القاهرة .

« . . والقضية هى أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير
واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القضية تحتوى
على اثنى عشر ألف حانوت .

هذا العدد الهائل من الحوانيت كان يبدأ فى زمن
المقريزى بعد أن يلج الداخل من باب الفتوح ، القسائم
الآن ، فيما يلى ذلك الباب كان يوجد سوق اللحم ،
والخضر ، كانت حوانيت القصابين تصطف متجاورة ،
تبيع لحم الضأن والماعز ، وكان القصابون يلفون اللحم
فى ورق الموز ، ومكان هذا السوق اليوم العديد من
التجار الذين اختصوا ببيع الليمون والزيتون الاخضر ،
ويعرف حاليا باسم سوق الليمون ، وهنا نلاحظ السمة
الاولى للأسواق العربية ، انها التقسيم النوعى ، فكل
سلعة تجدها فى مكان معين ، فرع بأكمله يتخصص فى
بضاعة معينة ، وتتجاور الحوانيت ، كل منها يعرض
نفس السلعة ، والتنافس قائم ، لكن تكمن وراءه
ما يمكن أن نسميه فلسفة يومية مستمدة من الدين
الاسلامى ، « الارزاق على الله » ، فلكل تاجر رزقه

وزبائنه ، ولا يزال هذا التقسيم قائما حتى يومنا هذا
فنجد أسواقا متخصصة ، الحمزاوى الذى يعرض
التوابل والعطارة ، والفحامين الذى تتجاور فيه متاجر
الاحذية ، والتبكشية (تجار الدخان والتبالك) ،
والخرنفش (تجار الخيش والكهنة القديمة) وتحت
الربع (الادوات المنزلية) والموسكى (الثياب والادوات
المنزلية والدرب الجديد (الحقائب والمصنوعات الجلدية)
وسوق الرويعى (ماكينات الخياطة ولوازم الحياكة)
وسور الازبكية (الكتب القديمة) والصناديق (الكتب
الازهرية) ، والصاغة (الذهب والمجوهرات) والنحاسين
(النحاس والالمنيوم) ، (وادوات المقاهى من نرجيلات
واكواب وفناجين) ، ودرب سعادة (الاشباب) والخردة
والمنسوجات الشعبية (وكالة البيع) . والتحف والهدايا
(خان الخليلي) . بل ان السلع غير المشروعة تجد مناطق
متخصصة فى بيعها مع ان الحكومة تحاربها وتطاردها
المتجرين فيها ، وهذا يبدو فى منطقة الباطنية التى تتركز
فيها تجارة المخدرات ، واذا ما انتقلنا الى المدينة
العصرية جدا ، أو وسط البلد كما يسمونه اليوم ، فنجد
ان الحوانيت المتشابهة التى تتجاور ، عشرات المتاجر
التي تباع الاحذية فى شارع قصر النيل متجاورة ، أو
الملابس الحديثة ، أو الآلات العصرية ، ان وحدة المكان
الذى تعرض فيه السلعة ، ظاهرة فريدة فى الاسواق
العربية ، انه ليس انعكاسا لقانون تجارى خفى ، بقدر
ما هو تجسيد لاسلوب فى الحياة ورؤية ، ان هذا سهل
على المشتري قضاء حاجته ، كما انه يشبه معرضا

مستمرا لسلعة بعينها ، يمكن للمشتري أن يقارن ، وان ينتقى ، وان يختار ، ثم يشتري . .
ونعود الى القاهرة التى وصفها المقريزى .

الاسواق القديمة

بعد سوق القصاصيين يجىء سوق المرحلين ، ويختص بلوازم الجمال عند الرحيل ، كان يقصد من سائر أنحاء مصر خصوصا فى مواسم الحج ، فلو أراد الانسان تجهيز مائة جمل فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه ، وقد بدأ خراب هذا السوق فى زمن السلطان برقوق ، ولم يبق له اثر الآن ، ومكانه الآن شارع السيارج ، أما سوق حارة برجوان فكان يعرف فى أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش ، كان معمور الجانبين بعدة وافرّة من باعة اللحم ، والزياتين ، والجبانين ، والخبازين ، والعطارين ، وقد خرب هذا السوق بعد سنة ٦٠١ هـ ، وهذا السوق الآن موضعه تجار أقمشة . وإذا ما تقدمنا حتى مسجد الاقمر سنجد سوق الشماعين ، حيث تباع الشموع الضخمة التى تحمل فى المواكب ، وكانت حوانيته تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، ويجلس بها بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن زى خاص ، وكانت تعلق بهذا السوق الفوانيس فى المواسم فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الاشياء ، وكان به شمع يصل وزن الواحد منه الى قنطار كامل ، وشموع تحمل على عجلات ، وفى زماننا انتقلت دكاكين بيع الشموع الى الامام فنجد عددا منها يقع بالقرب من الفورية وشارع الازهر ، وتباع فيها الآن الشموع التى تحمل فى

حفلات الزفاف ، والشموع التى تضىء فوانيس رمضان ،
وتباع أيضا قلل السبوع التى تضيئها الشموع عند
الاحتفال بمرور أسبوع على ميلاد البنات ، و «الباريق»
إذا كان المولود ذكرا . على أية حال ففدت الشموع
موقعها وتراجعت أمام الكهرباء .

وكان سوق الدجاجين يلى سوق الشماعين ، وفيه
الدجاج والاوز ، والطيسور المتنوعة ، وكان تباع فيه
عصافير محبوسة يشتريها الاغنياء ليعتقوها ، وموقع
هذا السوق اليوم مجموعة مبان متهاكة ، وموقع لبعض
الباعة الذين يحولون الزيتون الاخضر الى اسود . اما
عن اعتاق الطيور الحبيسة فعادة توارت ، ويجهلها الزمن
الحالى الذى كثر فيه اغتيال العصافير ، وذبح الاسراب
المهاجرة بمجرد ان تلامس صدورها السـاخنة بر
الانسـان ، وكان خط بين القصرين من اعمار مناطق
القاهرة ، وفى أيام الدولة الايوبية صار هذا الموقع
سوقا ، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحوم
المتنوعة ، ثم صار متنزها تمر فيه اعيان الناس لرؤية
ما تشتهى الانفس ، ثم أصبح هنا سوق السلاح ، وقد
نقل فيما بعد الى موضع يقع بالقرب من القلعة ، ولا يزال
الاسم عالقا بالمكان حتى اليوم ، وبجواره نجد الحرفيين
يجلسون الى تخوت صغيرة وأمامهم أقفاص صفار من
حديد مزخرف تحتوى على الخواتم والفصوص والاساور،
ثم سوق الحلوى ، وسوق المهاميز ، ثم سوق السروجيين،
ثم تجار المنسوجات المستوردة من الصين وفارس
والهند ، وبجوار الازهر سوق الشرايشيين ، ويبيع فيه
الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء ، والوزراء والقضاة

وغيرهم ، ومثل الكلوتات اليلبفاوية ، والكلوتات الزركشى ،
وسمى سوق الشرايشيين نسبة الى الشرايش ،
وأحدها شربوش ، وهو يشبه التاج كأنه شكل مثلث
على الرأس بدون عمامة ، وقد بطل فى عصر الدولة
الجركسية ، كما ان هذا السوق لا يوجد له اثر الآن ،
وفوق بعض أجزائه تقع منشآت السلطان الفورى .

ثم سوق الحلاويين ، وكان يمتد الى سوق الشوائيين ،
وكان معدا لبيع منتجات الحلوى من تماثيل تسمى
علايق ، واحدها علاقة ، وكان بعضها يزن من عشرة
ارطال ، الى ربع رطل ، وربما كان هذا السوق أصل
الاسم الذى أطلق فيما بعد على حارة السكرية التى تدور
فيها أحداث ثلاثية ادينا الكبير نجيب محفوظ .

وفى سوق مجاور تتصاعد أنغام موسيقية من آلات
لا تزال تحت التجربة ، انها حوانيت صناعة العود
والقيثارة ، وكانت هذه الحوانيت ملتقى أيضا لمن يهوون
الفن والموسيقى أو أرباب المجون والخلاعة بلغة عصرهم ،
ولا يزال حتى الآن بعض الحوانيت التى تصنع الآلات
الموسيقية تقع بالقرب من هذا المكان المجاور لشارع
محمد على المعروف بأنه مقر الفرق الفنية التى تحيي
الافراح .

بجوار باب النصر ، فى القرن الرابع عشر ، كان يوجد
سوق العبيد الذى نقل فيما بعد الى خان الخليلي ، هنا
كان يعرض الرجال والنساء للبيع ، كان البشر يعرضون
عراة فيما عدا قطعا رقيقة من القماش تستر عوراتهم ،
ويتقدم المشترون لفحص اعضاء الاجسام ، ونجد هذا

المشهد فى « ألف ليلة وليلة » ، حيث ينادى تاجر الرقيق ..

يا سيد ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة .

ولا كل ما احمر لحمة ، ولا كل سمراء تمره .
ثم يبدأ المزاد على الآلام البشرية .

يذكر المقرئ ثمانية وثلاثين سوقا كانت موزعة على قصبة القاهرة ، بعض هذه الاسواق زال واندثر بكل ما حفل به من ضجيج ، ومرور بشر ، ونظرات متلاقية فى اناة ، واخرى فى حذر ، بكل ما مر به من رجال تتبعوا نساء جميلات ، أو بصاصين تعقبوا بشرا من هنا أو هناك ، مثل سوق المرحلين ، والشماعين ، والدجاجين ، والقفصات ، وباب الزهومة ، والخوخيين ، والحرييين ، الخلعين ، وغيرهم .

وبعض الاسواق الاخرى انتقل مع حركة الزمن فى المكان فابتعد من موقعه ولم يعد يحمل الا الاسم ، كسوق السلاح ، وثمة أسواق اخرى لا تزال فى موقعها تقاوم عناصر البلى ، والعدم ، كسوق الصاغة ، وفى القاهرة الآن أسواق لا تزال محتفظة بالشكل القديم ، مثل سوق الخيامية المسقوف من خشب ويكثر به صناع الخيام التى تنصب منها السراقات ، وان كان عددهم قد تناقص الآن الى اقل من ثلاثين صانعا ، وبالطبع هنا خان الخليلي والحمزاوى ، والتربيعه .

كيف كانت تبدو هذه الاسواق فى العصور الخوالى للرحالة أو الاجانب المقيمين والزائرين ؟

الحوانيت

هذه الاسواق كانت تتكون من الدكاكين المتجاورة ،
يصفها المستشرق الانجليزى ادوارد لين :

« يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل ، او حجرة صغيرة
ارتفاعها ستة اقدام او سبعة تقريبا ، وعرضها ثلاثة اقدام
او اربعة ، وقد يتألف الدكان من حجرتين تتقدم الواحدة
ال اخرى وتستعمل الاخيرة مخزنا ويقسم امام الدكان
مصطبة بالحجر او الحجر يستوى سطحها بأرضية الدكان ،
وترتفع المصطبة عادة حوالى قدمين ونصف او ثلاثة
اقدام ويكون عرضها كارتفاعها ، وتجهز واجهة الدكان
بمصاريع ثلاثة سهلة الطى يعلو بعضها بعضا فيثنى اعلاها
الى فوق ، ويطوى الآخران الى أسفل فوق المصطبة
فتكون مقعدا مستويا يفرش بالحصر او البساط او
بالوسائد أحيانا ، وتستبدل بعض الدكاكين بالمصاريع
السابق ذكرها أبوابا منثنية ويجلس التاجر غالبا على
المصطبة ، ما لم يضطر الى الانسحاب قليلا داخل الدكان
ليخلى المكان لمن يصعد اليه من حرفائه الذين يخلعون
أحذيتهم قبل أن يطأوا الحصيرة أو البساط بأقدامهم
ويقدم التاجر الشبك الى حرفائه الدائمين ، أو من يشتري
بضاعة كثيرة ، الا اذا كان هؤلاء يحملون شبكهم ، ثم
يرسل الى اقرب مقهى فى طلب القهوة التى تقدم فى
فناجين صغيرة من الخزف الصينى داخل ظرف من
النحاس الاحمر (١) » .

بعض الدكاكين فى الاسواق القديمة لا تزال على

(١) المصريون المحدثون ص ٢٢٧ - ٢٧٨ : ترجمة عدلى طاهر نور .

عالمها ، لم يغير منها الزمن ، ربما كانت بعض العادات قد تغيرت ، فلم يعد ممكنا ان يترك التاجر دكانه مفتوحا فى وقت ذهابه للصلاة او الغداء لان الامان ليس هو الامان الذى كان فى عصر ادوارد لين ، ولا تزال الاسواق العربية فى بغداد والبصرة والموصل تحتفظ بهذه الدكاكين المفتوحة ، وعندما يمضى التاجر لقضاء حاجة يمد قطعة من القماش تعلن عدم وجوده ، مع الزمن ، وتوالى الايام ، وانعدام الثقة ، وكثرة الخلق ، لم يعد مفتوحا ، انما حلت الفاترينة المفلقة التى يعرض فيها التاجر بضاعته والحاجز الخشبى بينه وبين الزمان .

غير ان الحياة الجماعية للسوق ربما لا تزال تحتفظ بخصائص قديمة ، فالتجسار يرسلون وقت الغداء الى مطاعم منتشرة فى الاسواق يحضرون منها غداءهم ، كما يوجد عدد من المقاهى الكبيرة او باعة الشاي يجولون بعد وقت الغداء وعلى امتداد النهار ، اما باعة الحلوى فيجيئون ايضا فى الميعاد المناسب ، وفى وسط السوق يروح ويجيء الباعة المتجولون الذين لا يملكون دكاكين ثابتة لبضاعتهم ، وهؤلاء ينادون على بضاعتهم .

فيصيح بائع الترمس « مدد ، مدد يا امبابى » ويعنى بهذا القول اما الاستعانة بالشيخ الامبابى وهو ولى مشهور ، واما الاشارة الى ان ترمس امبابة لذيد الطعم ، ويصيح بائع الليمون « الله يهونها يا ليمون » وكثيرا ما ينادى على اللب ، « لب عبد اللاوى » يابطيخ ، « يا مسلى الغلبان يا لب » ، او « اللب المحمص » اما بائع الجميز فيقول « جميز يا عنب » ، ويستعمل بائع الورد نداء فريدا « الورد كله شوك من عرق النبى فتح » .

وكانت الاسواق تخضع لمراقبة المحتسب ، وكان يجوس من حين الى آخر خلال المدينة يتقدمه عامل يحمل الميزان والصنج ، وخلفه الجلادون والخدم ، وهو يمر على الدكاكين والاسواق واحدا بعد الآخر يفحص الموازين والمكاييل ، ويستفسر عن ثمن المأكولات ، ويتأكد من نظافتها ، واذا اكتشف مخالفة ينزل العقاب بمرتكبها وتذكر كتب التاريخ عقوبات فريدة أنزلها المحتسب بالفشاشين ، كهذا الرجل الذي كان يبيع الكنافة ناقصة الوزن ، فأمر المحتسب بجلوسه عارى المؤخرة فوق صينية الكنافة الساخنة ، وأحيانا كان المحتسب يقطع جزءا من الاذن أو الانف ، وكان هناك فى بداية القرن التاسع عشر محتسب اسمه مصطفى الكاشف مشهورا بقسوته ، وفى مرة قابل رجلا مسنا يقود حمارا محملا بالبطيخ ، فأشار الى واحدة من أكبرها حجما وسأل هن ثمنها ، فأمسك العجوز بشحمة اذنه وقال : اقطعها يا سيدى ، فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة ، وكان الجواب واحدا ، فاغتاظ المحتسب ، لكنه لم يتمالك ان ضحك وقال ، هل أنت مجنون أم أصم ؟ فقال العجوز : لا ، لست مجنونا ولا أصما لكننى أعرف اننى ان قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول ، اقطع اذنه ، واذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول اقطع اذنه لذلك اختصرت الامر . ونجا الرجل لتهكمه . .

لكن هل كان ذلك يعنى ان العدالة مطلقة ؟ يقال انه كان يسمى بين أيدى بعض المحتسبين رجل يحمل ميزانا أكبر حجما من الميزان المستعمل ، ويقال ان قب الميزان كان أنبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع

إذا عرف الدين رشوا سيده أن يرجح أحدى الكفتين بسهولة .

صورة شاملة

وإذا كان ادوارد لين قد قدم لنا صورة مفصلة للاسواق فى القرن التاسع عشر ، فان الرحالة أبو الحسن الوزان الفاسى ، المعروف باسم ليون الافريقى والذى زار مصر القرن السادس عشر يقدم لنا صورة شاملة :

« تمتلئ المدينة « القاهرة » بالصناع والتجسار ، ويكثرون بصفة خاصة فى شارع يمتد بين باب النصر ، وباب زويلة ، فهنا يقيم أكثر نبلاء القاهرة ، ويوجد فى هذا الطريق عدد من المدارس التى تثير الإعجاب بسبب حجمها وزخرفتها ، ويضم أحد الاحياء ، وهو الذى يسمى بين القصرين محلات تباع اللحم المطهو ، ويبلغ عددها ستين محلا ، مزودة بأطباق من الصفيح ، وفى محلات أخرى يباع ماء الزهر ، وماء الورد ، وهو يحفظ فى قنار من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية ، وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوروبا . وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر ، ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهة الذين يبيعون الفواكه السورية التى لا تنمو فى مصر ، مثل الكمثرى ، والسفرجل والرمال ويتخلل هذه الحوانيت محال أخرى تباع المقلبات من البيض والجبن ، وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض أصحاب الحرف الرقيقة ، وبعد توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان

الفورى ، وبعد المدرسة توجد «فنادق» المنسوجات (أى أسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت ، ففى الفندق الأول ، تباع الاقمشة الاجنبية من أحسن الانواع مثل تلك التى تأتى من بعلبك ، وهى نسيج قطن رفيع ، والمنسوجات التى تأتى من الموصل ، وهى التى حازت اعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها عليـة القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وبعد ذلك تأتى الفنادق التى تباع فيها أجمل الاقمشة الايطالية مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأؤكد لك بأننى لم أر مثيلا لها فى ايطاليا حيث صنعت » .

ويقول متعجبا عند حديثه عن تجار الروائح العطرية ان هذه المنتجات كانت متوافرة بحيث اذا أراد الزبون ان يشتري درهم مسك عرض عليه التاجر مائة رطل لينتقى ويختار ، وكثيرا ما كانت تلك الاسواق تشهد مناسبات غريبة ، فاذا ما حدث وانتج احد الصناع عملا جميلا ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت بصحبة الموسيقيين فيما يشبه موكب النصر ، وقد شهد ليون الافريقى موكبا لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق . كما رأى أحد أعمال القوة العظيمة التى قام بها أحد السقائين الذين يسيرون فى الشوارع حاملين قريبا من الجلد تتدلى من أعناقهم ، فقد تراهن مع شخص آخر ان يحمل قربة مملوءة بالماء تشد اليه بسلسلة من الحديد ، وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبع أيام متتابة من الصباح الى المساء يحمل هذه القربة التى علقت بسلسلة على كتفه العارى ففاز بالرهان ، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع

السقاين في القاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء .

الوكالات

الوكالة وحدة تعتبر سوقا في حد ذاتها ، ويمكن أن نعتبرها فندقا أيضا ، فالوكالة عبارة عن بناء كبير مربع الشكل في معظم الأحيان أو مستطيل ، يتكون من عدة طوابق ، الطابق الاسفل يتكون من مخازن متجاورة تستعمل كدكاكين لعرض البضاعة أيضا ، وفوق الحوانيت حجرات صغيرة تستخدم كمساكن للتجار الغريباء الذين قطعوا ساعات طويلة عبر بلاد متعددة لعرض بضاعتهم في القاهرة ولعل أشهر وكالة بقيت حتى الآن هي وكالة الفوري التي أعيد ترميمها وتتبع وزارة الثقافة حاليا، ويقوم بها عدد من الفنانين الذين يستخدمون حجراتها كمراسم، كما توجد بها بعض الأقسام الفنية التي ترعى العدد القليل المتبقى من الصناعة المنقرضة ، كصناعة خشب الخرط ، وتعشيق الزجاج بالجبس ، والتطعيم ، وفي بداية القرن التاسع عشر كان يوجد في مصر أكثر من مائتي وكالة ، معظمها أزيل الآن ، ولكن هنا وكالات قديمة جاء ذكرها في خطط المقریزی ، مثل وكالة الصابون المجاورة لبساب النصر ، والتي ذكرها تحت اسم خان قوصون ، ووكالة بازرة بالجمالية ، ووكالة القطن ، وكل وكالة لها باب واحد يقفل ليلا ويحرسه بواب .

لقد ولت أسواق القاهرة القديمة والتي كانت تعكس في تصميمها أسلوب حياتها قيما وعادات لم تعد موجودة

الآن ، واذا كانت الاصاله لا تزال تتشبث ببعض أركان
المدينه القديمه ، فاننا نجد فيها بقايا عتيقه تحاول الثبات
فى وجه رياح التغيير والنيون والبوتيكات ، وذلك الطوفان
النابع من كل أرجاء الدنيا .

مسجد المؤيد

إذا ذهبت الى شارع الفورية ، مشيت فيه ، وقبل أن تقترب من نهايته ، ستطالعك مثلنتين رشيقتين ، تقومان فى الفراغ ، لا تعلوان فوق مسجد ، انما فوق باب زويلة أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومحافضة القاهرة تتخذ من الباب والمثلنتين شعارا .

تبدو المثلنتان رشيقتان ، كأنهما حارسان غامضان على الماضى البعيد ، وكنوزه .. كأنهما ترقبان المارة من تحت البوابة ، والرجال والنساء ، والاطفال ، ترصدان ما جرى وما حدث خلال ما يقرب من خمسمائة وستين سنة عمر تواجدهما هنا .

هاتان المثلنتان تنتميان الى مسجد المؤيد شيخ المحمودى ، الذى يقع بجوار باب زويلة ، وربما تبدو المثلنتان والمسجد ، وما رآه من أحداث عندئذ ستدب الحياة فى الحجارة ، ستنطق ذرات التراب ، وتقطر دما .. اذن لنبدأ الرحيل ، مع تاريخ واحد من أجمل المساجد ..

« حدث فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، ان وقعت فتنة كبيرة فى القاهرة بين الماليك ، وكانت

الفتن كثيرة الحدوث وقتئذ ، تعودها الناس ، فلا يخلو شهر من تمرد بعض المماليك في القلعة ، ونزولهم الى الاسواق يخطفون ما بها من اطعمة وبضائع وثياب ، وعمائم للناس ، واحيانا كانوا يخطفون النساء والعلماء ، ليفعلوا بهم الفاحشة ، كل هذا لاثارة الاضطراب والدعر .

ولكن فتنة الامير منطاش كانت من الفتن الكبيرة في عصر السلطان الناصر برقوق ، وقد ذكرها مؤرخو العصر كعلامة بارزة امثال المقریزی ، وابن اياس ، وابن تفری بردی ، وابن حجر .

المهم ان الامير منطاش قبض خلال هذه الفتنة على العديد من المماليك التابعين للسلطان الظاهر برقوق ، وكان بين هؤلاء المماليك واحد يقال له شيخ المحمودی . كان شيخ المحمودی وقتئذ رجلا ناضجا ، جاء الى مصر وعمره اثنا عشر عاما ، وعرضه تاجر الرقيق على الامراء فلم يشتروه لان التاجر طلب ثمنا غاليا فيه ، ولانه جميل الصورة ، هادئ الطباع ، اشتراه الخواجا محمود شاه البزدارى تاجر المماليك ، ولان التاجر تعامل مع تاجر ، فكان الثمن الذى دفعه الخواجا محمود يسيرا ، ثم قدمه هدية الى الامير برقوق قبل ان يتسلطن ، وبرغم هذا استمر ينسب الى الخواجا (المحمودی) ، اذ ان المماليك كانوا ينسبون لاسيادهم .

نتابع المملوك شيخ المحمودی ، فنراه يتدرج فى التعليم ، القراءة والفقه والفروسية ، واللعب بالرمح ، ورمى الشباب ، والضرب بالسيف والمصارعة ، واتقن هذا

كله ، حتى أصبح أميرا على عشرة ممالك ، وعندما وقعت فتنة منطاش أمسكه وقيده فى الحديد ، وأرسله الى واحد من أبشع سجون مصر وقتل . .

سجن شمائل

لنقف قليلا تحت بوابة زويلة ، يمتد سور الجامع المرتفع بحذاء البوابة ، فى اتجاه باب الخلق ، حتى يبدو وكأنه جزء من سور القاهرة القديم ، بينما يمتد ضلعه الشرقى مطلا على شارع الفورية ، حيث بوابة المسجد .

هنا ، فوق هذه الارض التى يقوم فيها المسجد ، كانت توجد بعض مباني عتيقة ، أهمها سجن قديم ، اسمه « خزانة شمائل » .

الى هذا السجن الفظيع دفع بالامير شيخ الحمودى ، وضموه فى احدى الحفر القلدة ، قيدوا يديه وساقيه وعنقه بسلاسل حديدية مثبتة فى الحائط ، وكان الظلام كثيفا ، والروائح كريهة ، وربما تأمل شيخ فى حالة الممالك وقتل ، لا يأمن واحد منهم على نفسه ، مهما علا قدره ، ومهما تولى من المناصب ، فى لحظة ، فى اغماضة عين ، ربما تقطع رقبتة ، أو يلقي فى السجون . ربما فكر فى أمور من هذه ، لكن تفكيره لم يستمر طويلا ، والسبب يذكره لنا المقرئى . .

« فى السجن قاسى الامير شيخ الحمودى من البق والبراغيث شداثد ، فندب لله تعالى ان تيسر له ملك مصر ان يجعل مكان هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ، ومدرسة لاهل العلم » .

ولم يمض الكثير ، حتى فشلت فتنة الامير منطاش
(أو مؤامرة بلفة عصرنا) ، وخرج الامير شيخ محمودى ،
تقلب فى مناصب عديدة ، كما قاسى محننا وشدائد
استفرقت من عمره وقتا ، ولكنه بالتأكيد لم ينس نذره
الذى تعهد به ، وهو ان يجعل مكان السجن الرهيب
مسجدا .

السلطنة

محدثنا الآن ، هو المؤرخ المصرى الفنان العظيم ،
الشيخ ابو البركات محمد أحمد ابن اياس الحنفى
المصرى ، نستمع اليه ، الى ما يجرى فى عام ٨١٥
هجريه (١٤١٢ ميلادية) .

« فى يوم الاثنين ، اول شعبان سنة خمس عشرة
وثمانمئة ، تولى الامير شيخ محمودى الملك بالمقعد الذى
يباب السلسلة ، فكان اول من بايعه من العلماء جلال
الدين البلقينى ثم قدمت اليه خلعة السلطنة ، وهى جبة
سوداء مطرزة ، وعمامة سوداء وتلقب بالملك المؤيد » .

وفى بداية عهده ، وقعت عدة اضطرابات ، اذ ان مصر
شهدت وقتئذ طاعونا جارفا ، من أشد الطواعين التى
رأتها مصر حتى هذا التاريخ كان الناس يتساقطون فى
الطرق ، حتى ان الواحد قبل خروجه من بيته كان
يكتب اسمه على ذراعه ، ليعرفه الناس اذا مات فى
الطريق ، حتى الطيور فى السماء ، والحيوانات ادركها
الطاعون ، ولم يكن الطاعون غريبا عن الناس فى هذا
العصر ، كان اجدادنا يقاسون منه كل عام تقريبا ، حتى

صارت له مواعيد فى الظهور ، ووقت معين يبلغ فيه حدة لا حدة بعدها .

وعندما اشتد أمر هذا الطاعون ، خرج السلطان المؤيد شيخ الى الصحراء خارج القاهرة ، وصلى عارى الرأس فوق الرمال ، وانحنى باكيا ، متضرعا الى الله كى يزيل الفمة والوباء عن الناس ، وتقدم قربانا ..

مشهد رهيب ، وصفه لنا ابن اياس ، يرسم لنا صورة مؤثرة للعجز الانسانى فى مواجهة الكوارث التى يحار فى فهم أسبابها وعلاجها أيضا صورة لسلوك الراعى المسئول عن رعيته هذا السلطان المملوكى الذى يخرج الى الصحراء ، ويمرغ نفسه فى التراب ، ليزيل الله الآلام عن شعبه .. وتسجل كتب التاريخ العديدة من الاعمال التى تتسم بالرحمة والتى قام بها المؤيد شيخ .

المسجد

بعد ثلاث سنوات من تولى المؤيد سلطنة مصر ، شرع فى بناء مسجده الكبير ، فبدأ بهدم سجن شسمائل ، وبعض المباني المجاورة له ، وهنا يجب رصد ملحوظة هامة ، وهى اقدام كل حاكم مصرى على تشييد بناء معمارى ضخم ينسب اليه ، لا يقتصر الامر على سلاطين المماليك الذين شيد كل منهم مسجدا ، يتراوح فى حجمه وفخامته تبعا لطبيعة حكم السلطان ، من حيث استقراره فى الحكم مدة طويلة ، وحالة البلاد وشخصيته ، الا يذكرنا هذا بفراعنة مصر العظام ، عندما كان الفرعون يقدم على تشييد بناء معمارى ضخم ، يقهر به الفناء

ويضمن الخلود ، سواء كان البناء هرما مدرجا ، أو هرما أكبر ، أو معبدا ضخما ، أو بهو أعمدة فى معبد أو لوحات فنية دقيقة تنقش فى الصخر أو مسلات تفتطع من بطن الجبل ، خاصة اذا لاحظنا ان الاهرامات فى حقيقتها مقابر ضخمة ، ابنية حجرية شسيدها الانسان المصرى ليقهر الفناء بالمادة .

والمساجد التى اقامها

والمساجد التى اقامها سلاطين المماليك وامراؤهم تضم مقابرهم أيضا ، وعندما تدخل من الباب الرئيسى لمسجد المؤيد ، تطالعنا تربته الرخامية قبل وصولنا الى الايوان الرئيسى للجامع ، وبجواره تربة ابنه ابراهيم وفى الجهة القبلية غرفة أخرى للدفن ، بها زوجة السلطان وابنته ، وكان الداخل الى المسجد انما يجسد الموت ، وبدخوله الايوان تبدو له الحياة رحة ، فسيحة ، مشبعة بالضوء والخضرة ، وكأنه الفرج بعد الضيق ، أو الحياة بعد الموت .

وفوق مدفن السلطان المؤيد تقوم قبة حجرية شاهقة العلو ، تنتصب الجدران فى شموخ رهيب ، غامض ، كأن السلطان المؤيد يغالب الفناء ، يوجد لنفسه موقعا فى عصور تلت عصره ، تلاشى قبل أن يلحق بها .

هنا ، تحت هذه القبة الشاهقة ، حيث المادة ، حيث الروح والجسد ، كل ما ينطق به الاعجاز المعماري ، هنا تبدو قدرة مصر على فرض مضامينها الروحية ، حتى على الاجانب الذين يحكموها ، انضموا

الى جانب المصرى فى صراعه الابدى القديم ضد الفناء ،
ومحاولته ان يضمن الخلود .

ولان الحاكم قدراته اكبر ، امكانياته اوسع ، فقد لجأ
الى كافة ما يمكنه لتحقيق ما يهدف اليه ، وهذا ما فعله
السلطان المؤيد شيخ .

المسجد الحرام

يقول ابن اياس :

« فلما بنى السلطان هذا الجامع حصل للناس بسببه
غاية الضرر .. » .

صورة غريبة يقدمها لنا ابن اياس ، اذ كان المؤيد
يقصد بناء بيت من بيوت الله ، تشييد مسجد فلماذا
يحدث الضرر بالنسبة للناس ، لقد كان الاسلوب المملوكى
فى الحكم المتسم بالتعسف والظلم ، يتسرب الى اعمان
الخير أيضا .

كان بناء المسجد يحتاج الى كمية كبيرة من الرخام ،
لهذا صار والى القاهرة يهاجم بيوت الناس ويخلع منها
الرخام فصببا ، وهنا لنذكر ابن اياس مرة اخرى
يتحدث ...

« وصار المؤيد يكبس الحارات التى بها بيوت المباشرين ،
وأعيان الناس بسبب الرخام وكان التاج والى القاهرة
يهجم على الناس فى بيوتها ، ومعه المرخمون (عمال
الرخام) فيقلع رخام الناس طوعا أو كرها ، وأخرب
دورا كثيرة ، وجعل باب السلطان حس الذى خلعه ،
وجعله على باب جامع ، وأخذ التنور الكبير النحاس

« النجفة » منها أيضا ، ودفع فى الباب والتنور
خمسمائة دينار .

فكان ما قيل فى المعنى :

بنى جامعـــــا لله من غير حله
فجاء بحمـــــســـــد الله غير موفق
كمطعمة الايتام من كـــــد فرجها
فليتك لا تزنى ولا تتصـــــدق «

سيدى ابراهيم

فى ربيع الآخر ، عام ٨٢٣ هجرية . .

طلع أحد الموظفين الكبار الى السلطان ، وأخبره ان
الامراء يرغبون فى اقامة ابنه ابراهيم سلطانا بدلا منه ،
بعد ان حقق انتصارات كبيرة على بعض المتمردين فى
الشام واقترح على مؤيد شيخ ان يتخلص من ابنه ،
وفعلا قام السلطان بدس السم له فى الحلوى ، وكان
السم من النوع البطيء ، فبدأ المرض يحل بابن السلطان،
وعندما اشتد به ندم مؤيد شيخ على ما فعله ، ولكن
السهم نفذ ، اذ اشتد النزاع بابراهيم ، ومات فى ليلته
الخامسة عشر من جمادى الآخرة ، فى نفس السنة .

يقول ابن اياس :

« أخرجت جنازته من القلعة ، ومشى قدامه الامراء ،
وأرباب الدولة ، من القلعة الى الجامع الذى أنشأه
والده ، ودفن داخل القبة التى به ، وقام الخطيب فوق
المنبر ، وخطب خطبة بليغة ، ثم روى الحديث الشريف

عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لما مات ولده ابراهيم عليه السلام فقال :

« ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، واننا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » ، فلما سمع السلطان ذلك ، وضع منديله على وجهه وبكى ..

بكى السلطان مؤيد الشيخ ..
وبكى الناس على ابراهيم ابنه ..

رقد ابراهيم في تربته ، تحت القبلة التي لا بد ان تجتازها قبل دخول الجامع ، وفي نفس السنة مات السلطان ، ودفن الى جوار ابنه .. والآن نقف امام مدفنيهما ، مدفن السلطان المحاط بسور خشبي ، ومدفن ابراهيم الاصغر منه حجما ، قتل الاب ابنه حتى لا يلي الحكم بعده ، وجمعتهما هذه الرقعة الابدية .. والآن ... لندخل الجامع ..

الايوان الكبير

.. يفاجئنا الاتساع الرحب ، والفضاء الوديع الذي يملأ فراغ المسجد من الداخل .. نحن الآن تحت الايوان الشرقي ، تقوم حولنا اعمدة الرخام الجميلة التي تحمل سقفا مزدحما بأبدع النقوش الاسلامية .. كان للجامع أربعة ايوانات تحيط بالصحن كلها تخربت ، امتدت اليها يد الفناء ، ولم يبق الا هذا الايوان الشرقي ، الايوان تغمره الزخارف من الارض حتى السقف ، الجدران محلاة بالخزف ، والكتابة تغطي السقف .

نقف امام المحراب ، الرخام يكسوه تماما قطع صغيرة

متعددة الالوان وبجوار المحراب منبر خشبي طعم بالعاج والصدف ، الايوان لا يبهز بمجرد عظمة المعمارة فيه ، العمارة هنا لا تحدث أثرا في النفس ، انه الرهبة ، الخشوع ، العمارة هنا تجبرك على قبول دعوة للتأمل ، من خارج الشبايك تأتي أصوات الفورية ، كأنها تمر بعدة مرشحات عازلة قبل أن تصل الى أذنيك ، وعندما تسمعها هنا ، عندئذ تنتمى هذه الاصوات الى العصر الذي شيد فيه المسجد ، يساعد على هذا ان هذه الاصوات بالتأكيد لم تتغير كثيرا عما كان الامر عليه وقت بناء المسجد ، فالعربات والمركبات الآلية لا تمر من شارع الفورية الا نادرا ..

نخرج من الايوان الشرقي ، ليس الى الخارج ، ولكن الى وسط المسجد ، حيث تطالعنا حديقة ، خضرتها غريبة ، وتلقى الحديقة هنا ظللا مهيبا على طبيعة المكان ، تجعل للرغبة بعدا آخر ..

السكر

وفي صحن المسجد ، نرى فسقية من الرخام بنيت لتكون ميضأة ، نقرب منها ونحن نذكر حديث مؤرخنا العظيم ابن اياس بعد انتهاء عمارة مسجد المؤيد :

« ثم ان السلطان نزل الى هناك وأقام الى بعد العصر وأمر السلطان ان تملأ الفسقية التي في صحن الجامع سكرا ، فملئت ، ووقف الامراء يفرقون السكر على الناس بالطاسات » .

نذكر هنا ونحن نرى أحد الرجال يتعري ، ويجلس

القرفصاء ليتبول فى الميضاة ، وآخر يفسل تحت احدى
« الحنفيات » طبقا به بقايا اطعمة ، واذا مددنا النظر
فسنلمح بالارضية بقايا ونفايا قدرة .

احقا ملئت هذه الفسقية يوما ما بالسكر وشرب منها
الناس ؟

مسجد الحاكم بأمر الله

« ... الآن ، يوجد فى القاهرة القديمة مسجد كبير ، فسيح ، بطلت منه شعائر الصلاة منذ قرون ، وصلنا من العصر الفاطمى ، وكما لاقى صاحبه ظلما فادحا من المؤرخين ، فانه يعانى الآن وحدة وهوانا لا مثيل له ، فأعمدته متهدمة ومئذنتاه النادرتان تسكنهما الوطاويط ، وفوق قسم منه أقيم بناء قبيح لمدرسة ابتدائية ، مدرسة السلحدار الابتدائية ، وفوق قسم آخر مخزن . غير ان المسجد الفسيح يحتفظ بهيبة غامضة تتسق مع سيرة صاحبه التى يلفها نفس الفموض والهيبة ، ان أطلاله القديمة تضم بين ثناياها أسرار هذا العهد البعيد المثير .

قبل الموت

سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) بدأ الخليفة العزيز بالله الفاطمى فى انشاء مسجد خارج أسوار القاهرة ، لكنه لم يتم فى عهد هذا الخليفة ، توفى عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ، وكان عمر الحاكم وقتئذ أحد عشر عاما ، يقول المؤرخ ابن خلكان ان الحاكم بأمر الله قال لجليسه وصنيعه المؤرخ « المسبحى » الذى روى عنه ...

« استدعاني والدي قبل موته ، وعليه الخرق والضماد .
فاستدنانني ، اليه ، وقبلني ، وضمنني اليه وقال : واغمني
عليك يا حبيب قلبي ، ودمعت عينساها ثم قال : امض
يا سيدى والعب فانا فى عافية ، قال الحاكم : فمضيت
والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب انى ان نقل الله
سبحانه وتعالى العزيز اليه ، فبادر الى برجوان وانا فى
أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال برجوان « انزل ،
ويحك ، الله فينا وفيك » فنزلت ، فوضع العمسامة
بالجواهر على راسى وقبل لى الارض وقال « السلام عليك
يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . . ولان الحاكم
بأمر الله كان صغير السن ، فقد طمعت القوى السياسيه
الموجودة وقتئذ فى السيطرة عليه ، وكان الصراع محتدما
بين طائفتى المشاركة ، والمفاربة ، وفى وسط هذا الواقع
المضطرب كان هناك خصى أبيض اسمه (برجوان) أحد
الخدم البيض الذين جلبوا من أوروبا ليعملوا فى القصور
الاسلامية ، تدرج (برجوان) حتى وصل الى منصب
استاذ ، ثم عمل على ازاحة منافسيه ، وكان سياسيا
موهوبا فبدأ يستميل اليه العواطف المتنازعة ، وفعلا
تمت له السيطرة على مقاليد الامور أصبح يدير دفة
الامور فى الدولة ، وتجاهل الخليفة صغير السن ، لم
يقم له اى اعتبار ، ثم بدأ يفرق فى الملذات ، غرق فى
الملاهى ، والمتع ، ولانه كان مهيمنا على كل شىء فقد
أصبحت الفوضى تعم كل شىء ، ويبدو ان اغراء الحكم ،
والاغراق فى الملاهى ، قد حجبا عن عيني « برجوان »
ملاحح شخصية الحاكم بأمر الله ، هذا الفتى الطويل ،
المتسع العينين ، صاحب النظرات النفاذة ، الذى يميل
دائما الى التأمل ، فى هذه الفترة كان الحاكم قد تجاوز

مرحلة الصبأ ، بدأ يدخل مرحلة شبابه ، ولأنه خارق الذكاء ، جاد في تناوله للأمور ، لم يغب عنه أمر ما يحدث ، لكنه كتم ما يراه ، لم يفصح لأحد ، ولم يشك ، قرر أن يعمل في صمت ، أن يتخلص من هذا الداهية الذي يسيطر على الأمور ، ويقودها نحو خراب شامل ، اذن لابد أن يتخلص من برجوان . غير أن الدافع لديه لم يكن سياسيا محضا ، أو بهدف سيطرته على مقاليد الدولة ، لقد كانت أهدافه أعم وأشمل ، وهذا يبدو بوضوح في الخطوات العملية التي بدأ في تنفيذها بعد تمكنه من السلطة في تلك الفترة كان عقله يضج بالمثل ، كان يحلم بإقامة عالم خال من المظالم ، خال من المجاعات ، من الأوبئة ، عالم تتحقق فيه العدالة ، عالم يذوب فيه المحكوم في الحاكم ، أن الواقع حوله يضج بكل ما يستنفر روحه الطموحة الى عالم مثالي يقوم فوق أرض الواقع ، وهو ليس حاكما عاديا ، انه خليفة ، وامام المؤمنين ، ومرتبة الامامة عند الفاطميين تجعل الخليفة من الناحية التأويلية في مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر ، لان الأئمة هم حجج الله على خلقه وهم الداعون الى توحيد الله تعالى وتنزيهه .

خطة التخلص

لا شك اذن ان الامام أو الخليفة الفاطمي يتمتع بموقع استثنائي بالنسبة لبقية البشر ، اذن ليحاول من خلال موقعه هذا وما ينفرد به من سلطات وهيبة وحصانة ان يقيم عالمه المثالي . لكن تبقى عدة عقبات ، منها ضرورة

سيطرته على جهاز الحكم حوله ، ثم الوسيلة الى خلق هذا العالم المثالى ؟

لكن كيف وهو بلا حول أو قوة ؟

بتآن شديد وضع خطة محكمة للتخلص من «برجوان» . استدعى أحد رجاله المخلصين ، زيدان صاحب المظلمة ، أى من يحمل المظلمة فوق جواد الخليفة فى المواكب ، التقى به فى البستان الكافورى المطل على النيل ، وكان البستان متصلا بالقصر عن طريق سرداب يمتد تحت الارض ، فى ذلك البستان رتب كل شىء . . وفى يوم آخر ذهب الى البستان ومعه برجوان فى هذه المرة ، لقد اعتاد برجوان مصاحبته أثناء تفقده لبعض المنشآت الجديدة ، طافا بين الاشجار ، تأملا الخضرة ، تحدثا ، فجأة . . ظهر زيدان ، تقدم مقبلا يد برجوان ، فى نفس الوقت يتحسس ملابسه خوفا من أن يكون مرتديا درعا حديديا ، تأكد أن برجوان لا يلبس شيئا ، بسرعة . طرحه أرضا ، قتل برجوان . وبسرعة بدأ الحاكم يتحرك بدكاء . « وبكر الناس الى القصر فوقفوا بالباب ، ونزل القائد أبو عبد الله الحسن بن جوهر القائد وحده الى القصر وأذن للناس ، فدخلوا الى الحضرة ، وخرج الحاكم على فرس أشقر ، فوقف فى صحن القصر قائما ، وزيدان يمينه وأبو القاسم الفارقى عن يساره ، والناس قيام بين يديه ، فقال لهم بنفسه من غير واسطة : أن برجوان عبدى استخدمته فنصح فأحسننت اليه ، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته ، وأنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم .

ثم أصدر سجلا الى سائر اهالى مصر ، تلى بعد صلاة الجمعة يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٢٩٠ (٦ ابريل سنة ١٠٠٠ م) . تلى السجل من فوق منبر المسجد ، مسجد الحاكم بأمر الله الذى كان فى بداية عمره الطويل يقوم خارج أسوار القاهرة ، فى سقفه تتلأأ مئات القناديل ، ومن مثذنتيه اللتين شيدتا على نمط منار الاسكندرية الذى كان سليما لم يتهدم بعد يدوى صوت اثنين وخمسين مؤذنا فى أوقات الصلاة .

من فوق المنبر نصح الناس بالعودة الى أعمالهم ، وقال انه منذ الآن سيباشر كل شىء بنفسه ، وان بابه مفتوح امام الناس كلهم ، لقد بدأ الحاكم خطواته العملية نحو تحقيق العالم الذى يطمح اليه ، فى الشهور الخمسة التالية لمقتل برجوان تخلص من الاتباع الاقوياء الذين كانوا يمثلون ضغطا عليه ، أصبح قابضا على مقاليد الامور بيد من حديد ، لنر اذن ما سيفعله ، ما الذى قام به من أجل خلق عالم حلو ، رائع ، بلا أوجاع ، وهنا يجب أن نلاحظ عدة اعتبارات ، منها طموح الحاكم بأمر الله ، وظروف عصره ، وسبقه للواقع المحيط به ، ثم الوسائل التى اتبعها والتى كانت تبدو حينها متسقة مع زمنه ، وفى أحيان أخرى تبدو غير مفهومة لأنها تسبقه .

نحو عالم مثالى

- ١ -

.. يخرج الحاكم بأمر الله راكبا حماره ، يتجه الى المسجد الذى لا زالت بعض الاعمال التكميلية تجرى فيه ،

- ٨٨ -

ان موكبه يلفت النظر ، لا تحيطه اى مظاهرة للابهة
والفخامة التى تعود اهل القساهرة رؤيتها عند خروج
الخلفاء الفاطميين انه يمشى بدون حرس ، وراءه غلام
اسمه مفلح يحمل الدواة والسييف والورق فى كيس
معلق فى كتفه وهو يمشى وراءه ، يكتب ما يتقدم به الناس
من شكاوى ، كان الحاكم يقف امام الدكاكين ، والبيوت ،
يتحدث مع الناس ، وخلال ذلك يحل بعض المشاكل ،
ينصف بعض من ظلموا ، وكانت الناس تجرؤ على الاقتراب
منه ، والوقوف بين يديه .

- ٢ -

يا امر بتعطيل المطابخ الضخمة ، والكف عن الانفاق على
الاطعمة الفاخرة .

يبدأ الناس فى الانتباه الى هذه الشخصية غير
العادية .

- ٣ -

.. الحاكم بأمر الله يستدعى احد القضاة . لقد
سمع عنه امرا عجيبا ، انه يلبس طرطورا ركب فيه قرنين
من قرون البقر ، يضعه الى جواره لاختافة الناس ، ويسأله
الحاكم :

« ما هذا الامر الذى ابتدعته ؟ »
ويقول القاضى :

« يا امير المؤمنين ، اشتهى أن تحضر مجلسى يوما
وانت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من الناس ، وان
كنت معدورا فيهم ، والا .. فعاقبنى بما تختار .. » .

ويذهب الحاكم بأمر الله الى مجلس القاضى ، ويشاهد ما يقاسيه فى سبيل أخذ الحق لمستحقه ، فأقره على ما يفعله ، وكاد أن يلبس القرنين لينطح بهما أحد المدنين .

ان الحاكم بأمر الله يتابع جميع قضاته ، كان مهموما بتحقيق العدالة . ورمى بثقله لتحقيق هذا الهدف ، وكأنه يود لو أنصف هو جميع المظلومين .

- ٤ -

ها هو يجلس فى وقت معين يعرفه الناس عند أحد أبواب القصر ، يجيء المتظلم ، يقف صائحا ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يأمر عندئذ باحضاره ، يصفى الى شكواه ، بأمر بتحقيق عاجل .

ملاحع شخصية

- ١ -

القامة مديدة ، كما تصفها لنا مصادر التاريخ ، العينان واسعتان ، براقتان مشعتان ، أقسوى القلوب لا تجرؤ على الصمود طويلا أمامهما ، الصوت جهورى عميق ، يميل الى التأمل ، كان يحب أن يمشى بمفرده ، يصعد الى جبل المقطم ، وبالقرب من حلوان يقوم بناء شيدته خصيصا ليرصد منه النجوم والكواكب ، ربما كان فى نفس الوضع الذى يقوم فيه الآن مرصد حلوان المشهور ، انه لم يعلم النجوم ، فى هذا الوضع يحتجب أياما كثيرة عن أهل مملكته ، لا يحضر مجالس الجدل ،

له سعى فى اظهار كلمته ، فى عهده خطب له فى خراسان .

انه يحب العلماء ، ويقربهم ، وما كان يورقه فى ذلك العصر حدوث المجاعات ، بمجرد انخفاض ماء النيل عن معدله عند الوفاء تختفى الغلال ، تقل مساحة الارض المزروعة فيقاسى الناس شدائد عظيمة ، انه مهموم بوضع حد للمجاعات ، حدثوه عن شخص من العراق اسمه : أبو على الحسن بن الهيثم ، قالوا له انه نابغ فى فن الهندسة ، وانه قال ، لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص ، فأرسل اليه الحاكم أموالا ، ودعاه الى مصر ، فلما وصل خرج اليه بنفسه وأكرمه وسيره مع جماعة من الصناع ، وصلوا حتى أسوان ، لكن ابن الهيثم يبدو انه لم يستطع تحقيق ما فكر فيه ، لم تساعد امكانيات عصره على تحقيق مشروعه ، هل فكر ابن الهيثم فى اقامة سد عال يعترض مجرى النهر وينظم توزيع مياه النهر ؟ ربما ، خاصة وان الخزانات والسدود لم تكن غريبة على مصر ، انها معروفة منذ أيام الفراعنة ، لكن يبدو أن ابن الهيثم أراد تحقيق عمل ضخم لم تساعد الامكانيات المتاحة على اتمامه ، ولم يضايقه الحاكم بأمر الله ، انما أبقاه فى مصر مكرما ، انه يتخذ فى نفس الوقت اجراءات عديدة لتخفيف الواقع الاقتصادي على رعاياه ، يلغى العديد من الضرائب التى فرضت منذ عهد الولاة العباسيين ، وعندما تقع المجاعة يبذل جهدا خارقا لتثبيت أسعار العملات المتداولة ، ثم يقيم سعرا لكل شيء بنفسه ، وفى إحدى المرات التى اختفى فيها

القمح ، ركب حماره متوجها الى المسجد ، وقبل تحركه خطوة قال (أنا ماض الى الجامع . فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطأه حمارى مكشوفاً من الفلة لأضربن رقبة كل من يقال لى ان عنده شيئاً منها ولاسرقة داره .. وانهبن ماله) .

فى عودته كانت الفلال تملأ الاسواق .

كان المنصور أبو على الحـاكم بأمر الله ، عادلاً ، متسامحاً ، عالماً ، صبوراً ، ولكن التاريخ الذى يكتبه السادة لم يحتفظ له بصورته الحقيقية ، تماماً كما فعل مع على بن محمد صاحب الزنج ، وكل من انحاز الى جانب العدالة والناس ، كانت اجراءات الحاكم بأمر الله من أجل تحقيق عالم مثالى تهدد مصالح السادة . وهذا ما أدى الى قتله ، ولكن مسيرته ظلت تؤرقهم على مر العصور ، فقلبوا وشوهوا وسخروا .

من هنا أرى انه لا حقيقة فى التاريخ ، الواقعة تفسر من أكثر من زاوية ، الحقيقة نسبية ، سيرة الشخص لا تصل للمصور التالية كما هى ، يخضعها كل مؤرخ لتصور خاص ، تتدخل فى تقديره المصلحة والعقيدة ، وسيرة الحاكم مثال حى على ذلك .

لكن ما هى الاجراءات التى اتخذها الحاكم بأمر الله وسخر منها التاريخ ؟ لنلق نظرة على كل منها ، والظروف التى أدت اليه .

لماذا الاوامر ؟

» يمنع الحاكم بأمر الله أكل الملوخية والجرجير ،

والقرع ، والمتوكلية ، وأم الخلول ، والترمس العفن ، كما يأمر بقتل الخنازير ، ويمنع عجين الدقيق بالرجل .

من الواضح أن سبب منع معظم هذه الاطعمة صحي بحت ، فكثير منها كان يتسبب عنها اضرار صحية بالغة ، خاصة اذا راعينا الحالة الصحية وقتئذ وتفشى الوبئة ، ويقول بعض المؤرخين أن منع الملوخية والمتوكلية كان بسبب حب معاوية لهما ، ومعاوية خصم آل البيت ، وخصم الفاطميين .

أمر « ٢ »

« تمنع زراعة الكروم »

أراد الحاكم بأمر الله تحريم شرب الخمر ، وكانت منتشرة جدا في ذلك الوقت بسبب حالة الرخاء الاقتصادي التي حدثت بعد الفتح الفاطمي لمصر ، كما أن الدين الاسلامي ينهى عن الخمر .

أمر « ٣ »

« يمنع الحاكم بأمر الله صناعة النعال الحریمی ، ومنع النساء من الخروج ليلا ، ومنعهن من كشف وجوههن وراء الجناز والخروج الى حلقات الرقص خارج المدينة » .

استمر منع النساء من سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) حتى خلافة الظاهر عام ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) أي انهن قضين سبع سنوات محبوسات ، وكان الدافع لاتخاذ هذه الاجراءات اخلاقيا ، ومحاربة الفساد من أجل الحفاظ على التقاليد الدينية ، من ناحية أخرى اتخذ الحاكم بأمر الله عدة اجراءات أخرى ، منها انشاء دار لاموال اليتامى ، لا يدفع من مال اليتيم الا اذا حضر اربعة من ثقات

القضاة ، وأمر بقتل الكلاب ، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالازقة والشوارع شئ ، وطرحت بالصحراء وشاطئ النيل ، وأمر بكنس الازقة والشوارع وأبواب الدور فى كل مكان ، وتلك اجراءات صحية ، وفى ربيع الاول سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) أمر باضاعة القناديل فى الليل بسائر الحواري والازقة بالقاهرة ، وهنا نجد بعض المؤرخين يفسرون هذا الاجراء الذى يستهدف الحفاظ على الامن بأن الحاكم أمر بقلب النهار الى ليل ، والليل الى نهار ، لقد أثرت الرواية التاريخية المفرضة فى وجدان الشعب ، فنجد بعض الروايات المتوارثة فى القاهرة القديمة تقول أن الحاكم بأمر الله قلب الليل الى نهار ، وانه ركب بعد شروق الشمس (أى غروبها طبقا للنظام الجديد) ليرى هل يلتزم الناس بأوامره ، والنوم نهارا (باعتباره ليلا) وفعلا .. وجد الطرقات خالية ، والدكاكين مغلقة ، لكن اسسكافيا عجوزا كان لا يزال يعمل ، وفى الضوء النهارى أشعل مصباحا صغيرا ، اقترب منه الحاكم متسائلا عن السبب فى مخالفته الاوامر ، فرفع الرجل اليه عينين ضعيفتين وقال :

— أصلى سهران بعض الوقت !!

استخدام الشدة

فى أواخر عصر الحاكم ، ظهر بمصر عدد من الدعاة ، بدأوا ينشرون تعاليم غريبة . مؤداها اعتبار المنصور أبو على الحاكم بأمر الله فوق مستوى البشر ، وكان

أحدهم وهو محمد بن اسماعيل الذي لقب بالدرزي يؤمن بالتجسيم والحلول ، فروح آدم تجسدت عليا رضى الله عنه ، وهذه انتقلت الى الحاكم بأمر الله ومن قبله أبيه وجده ، دعا الناس الى عبادة الحاكم ، واستطاع الدرزي نشر دعوته بين عدد من الاتباع بلغ عددهم حوالى ستة عشر ألفا ، لقد طرد هؤلاء من مصر ، واستقروا بالشام حيث يعيشون الى يومنا هذا فى انتظار عودة الحاكم بأمر الله ، وهم الدرزي . . وبالتأكيد ، لم يصلنا نص واحد ينسب الى الحاكم انه ادمى الالهية ، وتلك مسألة شائكة ، تدخلت فيها عوامل عديدة ، اذ ان الدعوة اصحاب هذه الفكرة معظمهم من أصل فارسي ، حيث الايمان قوى بتناسخ الارواح والحلول ، الى جانب فكرة المهدي المنتظر ، ونزول المسيح فى آخر الزمان ، ربما وجد هؤلاء فيما يقوم به الحاكم وفي شخصيته المثالية أرضا خصبة لأفكارهم ، غير ان الحاكم انزعج من هذه الدعوة ، حتى انه استخدم الشدة وقتل دعائه الذين غالوا فى آرائهم ولم يدفعوا عنه ما قيل عنه ، وفى مرحلة معينة أحس بفداحة الخطر الذى تمثله هذه الدعوة على جهوده من أجل العدل والطمأنينة بين البشر ، فاعتزل الدنيا كلها ، كان يجلس فى مكان مظلم لا يدخل عليه أحد ، أو يخرج هائما على وجهه فى الصحراء ، أو يصعد الى جبل المقطم يستغيث بالله ، ويناجى ربه ، وهنا نرى الحاكم زاهدا فى الدنيا ، لا يحلق شعره ، أظافره طويلة ، لا يغير رداءه الا كل مدة ، وبرغم ذهوله عن الدنيا ، وضيقة بما يجرى ، لم تفتر عزيمته فى

محاربة الذين يحاولون تشويه مسيرته ، وظل يحارب حملة هذه الدعوة حتى يوم خروجه الاخير الى المقطم . .

المشهد الاخير

اليوم ، ثلاثاء ، ١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م سنة ٤١١ هـ ، الليلة يخرج الحاكم بأمر الله من باب القصر الشرقي الكبير ، ركب حماره ، متوجها الى خارج القاهرة ، المدينة هادئة ، وثمة غموض في الجو ، ويبدو ان ام الحاكم احست بما سيقع ، تعلقت به قبل خروجه ، رجته بحرارة ان يبقى ، ألحت عليه ، لكنه أصر على الخروج .

امام باب القصر ، وقف جماعة ينتظرونه كل ليلة ، يصاحبونه في سيره ، واذا يقترب من الجبل يعودون ، يستمر بمفرده ، أثناء مشيه ربما اعترضه بعض الرعايا ، يقدمون له الشكاوى ، يقف الواحد منهم على يمينه ، يشرح له متاعبه ، يصفى الحساكم ، ان ذاكرته قوية تستوعب ما يسمعه ، اذ يعود الى القصر يعمل على حل هذه المشاكل ويطلب من الاهالي انتظاره في الليلة التالية بنفس الموضع حتى يخبرهم بما اتخذ من قرارات .

الليلة ظلامها كثيف ، النجوم كثيرة في السماء ، عند بداية الجبل عاد مرافقوه ، وأوغل الحاكم في الدروب المهجورة .

يقال انه نظر طويلا الى السماء ، ثم صاح « ظهرت يا مشئوم » . .

ومنذ هذه اللحظة لم تقع عليه عين بشر حتى الآن ،
لم يعثر له على جثة ، وازداد الموقف غموضا .

.. وعندما تقف الآن فى صحن المسجد الفسيح
المتهدم ، تهيمن علينا مسيرة الحاكم بأمر الله ، كأنه
يرقبنا من مكان خفى ، لقد صلى هنا ، ومشى هنا ، ومن
امام هذا المسجد سار الى الجبل قبل غيبته ، والى
المسجد يجىء بعض الناس من الهند بين فترة وأخرى ،
من بقايا الفاطميين هناك ، يحجون الى مسجد الخليفة
الفاطمى ، ان الاعمدة تقاوم جاهدة البلى ، نلمح الاعياء
فوق جدرانهم ، والخراب حول مئذنتيه ، يجول بالدهن
حاطر ، هل يعود الحاكم يوما ليحمر هذه الاطلال ..
وليسأل نفسه ، كيف تحول هذا المسجد الفخم الى تلك
الاطلال ..

ما جرى للمسجد

عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) :

بدر الجمالى أمير الجيوش والوزير الفاطمى يجدد
أسوار القاهرة ، أصبح مسجد الحاكم داخل الاسوار ،
التصق الجدار الشرقى منه . بالسور فى المنطقة التى
تقع بين باب الفتوح وباب النصر .

عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) :

يضع زلزال خطير بالقاهرة ، يخرب المئذنتين ، ينتدب
السلطان الناصر محمد ، « الامير ركن الدين بيبرس
الجاشنكير » فنزل الى المسجد ، وكشف بنفسه ، وأمر

بردم ما تهدم منه ، واعاده ما سقط من البدنات ، فأعيدت
وفى كل بدنة منها طاق وأقام سقوف الجامع وبيضه
حتى عاد جديدا ، وبالمسجد نقش كتابى جاء فيه « وكان
الفراغ فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة » .

عام ٨٦٠ هـ (١٣٥٨ م) :

يجدد المسجد فى عهد الملك الناصر حسن ، ويبيض
مئذنته أحد الباعة ويعرف بابن كرسون .

عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) :

يقوم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف بتجديد أربع
بوائك من مؤخرة المسجد ويجعلها بيتا للصلاة .

ثم يستخدم المسجد لأغراض مختلفة ، اتخذ مقرا
لحامية أثناء الحملة الفرنسية ، ثم مقرا لبعض الشوام
الذين أقاموا فيه مغازل ومصانع لصناعة الزجاج اليدوى
ونسج الحرير ، وفى عام ١٨٨٠ استخدم متحفا للآثار
العربية ، ثم أقيمت فوق جانب منه مدرسة السلحدار
الإعدادية ..

والآن لنلقى نظرة من أعلى ..

المئذنتان

ربما يمثل كل حجر فيهما حدثا تجسّد من العصر
البعيد ، تدركنا رهبة اذ ندخل المئذنة الشمالية من باب
صغير فوق سور القساهرة القديم ، السلم حلزوني

متسع ، فسوق درجاته نقوش فاطمية تأكلت ، تدور
السلام حول جسم اسطوانى ضخيم من الحجر . تفجع
الاذن بأصوات غريبة تلوث ضوء النهار ، تنال من رهبة
المكان ، انها الوطاويط ، لا تخرج فى النهار ، وفى
السماء تنتقل أسرابها الى أشجار النبق القديمة فى فناء
الجامع . وتطير الى الشرفة الرئيسية ببيت السحيمى
الاثرى القريب .

أعلى المئذنتين ..

تشعر بالعلو الشاهق ، تبدو المئذنة البحرية ، القاعدة
المربعة ، يعلوها بناء مربع آخر يميل ميلا خفيفا ، يذكرنا
هذا بوصف الرحالة عبد اللطيف البفــدادى لمنازة
الاسكندرية عام (١٢٠٠ م) ، لا شك ان المنارة كانت
تشكل منبع الوحي الذى استوحاه المهندسون المصريون
عند بناء المئذنتين ، انهما أقدم مئذنتين قائمتين على
حالهما القديمة فى العمارة الاسلامية فى مصر ، نلاحظ
فوقهما بنائين غريبين عن الطراز الاصلى للمئذنتين ، انها
الاضافات التى قام بها الامير بيبرس الجاشنكير عام
٧٠٣ هـ بعد أن هدمها الزلزال ، لكن ما بناه يبدو نشازا ،
لم يراع الطراز الاصلى للبناء ، أكمله ببناء من زمنه هو ،
الآن تعاني المئذنتان أهمالا وهوانا ، والوطاويط تلوث
احشاءهما ، والكتابة الكوفية الجميلة التى تحيط بهما
مهدة بالتآكل والضياع ، من أعلى تبدو أطلال المسجد ،
تبعث على الرثاء ، وكأن الحاكم يرقبنا ، ويرقب نظرات
الاسى فى ميوننا على ما تبقى منه ، لقد جاهد طويلا ليمحو

الظلم ، وسعى فى الارض ليقيم العدالة ، ثم غاب فى
غموض غريب ، وحملت الرواية التاريخية مسئولية دماءه
لاخته ست الملك التى قيل انها قتلتها . غير انه لم يتبق
منه كحقيقة مادية ملموسة ، ومن جهوده كلها الا ..
هذه الاطلال ..

مآذن القاهرة

تتعدد وجوه القاهرة بتعدد المراحل التي عاشتها تلك المدينة منذ عصورها الاولى . وحيثما ذهبت تستطيع ان ترى للقاهرة وجها مختلف الملامح والقسمات ، وربما عالما له شخصيته المميزة . وهذه نظرة الى القاهرة من خلال مآذنها العديدة والعريقة .

* تنفرد مدينة القاهرة بوجود مجموعة كبيرة من المآذن . تمت الى عصور مختلفة ، فى كل منها خصائص العصر الذى بنيت فيه ، ولامحه ، قد تبدو المآذن مجموعة من المباني النحيلة الرشيقة التى تشبه لتسد الفراغ اذا نظرنا اليها بمعزل عن الظروف ، لكن عندما نتوغل الى الزمن الذى بنيت فيه سنجد ان الحياة قد دبّت فى الحجارة الرمادية الصماء ، وسنجد أمامنا « أرشيفا » حيا ، للعمارة الاسلامية والمثدنة لم تولد مع المسجد ، بل أنشئت فى فترة متأخرة قليلا كضرورة تقتضيها الحاجة ، يؤكد البخارى ان المسلمين عندما هاجروا الى المدينة كانوا يجتمعون « فيتحنون للصلاة ، ليس ينادى لها ، فتكلموا يوما فى هذا ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم

بل بوقا مثل قرن اليهود ، فقال عمر أولا تبعثون رجلا منكم ينادى بالصلاة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا بلال قم فنادى للصلاة . . » وكانت المساجد الاولى تخلو من المآذن ، كمسجد السكوفة (١٧ هـ - ٦٣٨ م) ، والمسجد الجامع بالبصرة (١٦ هـ - ٦٣٧ م) وكان مسجد عمرو بن العاص خاليا من أى مثذنة ، وكان الناقوس مستخدما فيه للدعوة الناس الى الصلاة حتى سنة (٥٣ هـ - ٦٧٣ م) وفى البداية أطلقت كلمة (صومعة) أو (منارة) على المآذن ، وكانت كلمة صومعة تطلق فى الاصل على صوامع الرهبان المسيحيين ، وهى بناء مربع يعلو عن الارض وعندما زار الرحالة ابن جبير دمشق وصف ثلاث صوامع بالمسجد الاموى ، « كالبرج المشيد » ، وما تزال كلمة صومعة مستعملة فى شمال أفريقيا حتى وقتنا هذا ، وربما كان ذلك لان شكل المآذن لا يزال محتفظا هناك بصورته المربعة الاولى . أما لفظ « منارة » فهو يعنى المكان الذى ينبعث منه النور أو الضوء ، وهذا يعنى ان المثذنة كانت تستخدم فى وقت ما لاغراض أخرى غير الأذان ، كارسال الاشارات الى السفن ، أو ارشاد التائهين فى الصحراء ، أما كلمة مثذنة فمشتقة من لفظ (الأذان) .

أقدم المآذن

تقول كتب التاريخ ان أحمد بن طولون كان رجلا جادا ، لا يضيع جزءا من وقته فى العبث أو اللهو ، وفى احد

الايام ، كان يجلس مع بعض رجال دولته ، وكان الحديث حول المسجد الجديد الذى ازمع بناءه فى مدينته الجديدة التى اختطها « القطائع » ساد صمت ، أطرق ابن طولون ، وراح يلف ورقة حول أصبعه ، انتبه فجأة الى انهم ضبطوه فى لحظة عبث . أراد أن يبرهن لهم انه كان منصرفا الى عمل نافع يتدبره ، فثبت الورقة على وضعها حول أصبعه ، وقال بسرعة .. « اعملوا لى مثدنة على هيئة هذا المخروط .. » .

ربما تبدو هذه القصة مقنعة لتفسير هذا الشكل الغريب لمثدنة ابن طولون ، أقدم مآذن القاهرة ، لكن لو عرفنا ان ابن طولون قضى أول حياته فى مدينة سامراء العراقية ، قبل أن يفد الى مصر . وإذا لاحظنا مثدنة جامع سامراء القائمة فى الزيادة الشمالية للمسجد (تماما كمثدنة ابن طولون) التى لا تتصل بسائر مبنى المسجد ، تبدو كأنها منفصلة عنه ، ولا ترتبط به الا بواسطة قنطرة محمولة على عقدتين متجاورين . وكلتا المثلثتين تتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها سساق اسطوانية يلف حولها من الخارج سلم دائرى عرضه حوالى ٩٠ سنتيمترا له سور دائرى أيضا ، هناك اذن تشابه بين مثدنة ابن طولون ومثدنة جامع سامراء ، وقد زرت كلا المثلثتين ، ولا شك ان كلا منهما توحى بالآخرى ، خاصة عند صعود السلم الدائرى ، والوصول الى قمة أى منهما . الفرق ان سلم ملوية سامراء غير مسور أما سلم مثدنة ابن طولون فيحف به سور منخفض . ولا شك ان مثدنة سامراء كانت ماثلة فى ذهن ابن طولون .

والمئذنة التى نراها اليوم بنيت فى زمنين مختلفين .
نصفها الاسفل المربع ، والجزء الاسطوانى من البناء
الاصلى . أما الجزء العلوى المكون من طابقين فقد
أضافهما السلطان لاجين عام (١٢٩٦ م) . ويقال انه
فعل ذلك نتيجة لنذر قطعه على نفسه عندما كان مطارداً ،
واختبأ فى المسجد قبل اعتلائه كرسى السلطنة وكانت
المئذنة وقتئذ مهدمة . تطل برثاء على المسجد الفسيح
الساكن ، والذى عبر كل الاعاصير والتقلبات ووصل الى
زماننا سالماً ..

الحاكم

بالقرب من نهاية شارع المعز لدين الله ، قبل وصولنا
الى بوابة الفتوح ، أحد أبواب القاهرة القديمة السبع
يمتلئ الجو برائحة سوق الليمون والزيتون الاخضر
ويسد الطريق امامنا سور القاهرة القديم . تبدو سلال
الحصن الذى كان يطوق القاهرة ، كذلك اماكن وقوف
الجند ، ومزافل المراقبة ، فى الفراغ تعلو مئذنتا الحاكم
بأمر الله ، وتحتهما يمتد أكبر مسجد فى مصر ، وأكثر
المساجد اهمالاً ورثاًة . فوق جزء من فناءه يستقر بناء
كالنشاز يضم مدرسة السلحدار الاعدادية . ثم اطلال
وخرائب . وبرغم مظهر الاهمال فان المكان يعبق برائحة
تاريخ قوى لم يول بعد ، تاريخ الحاكم بأمر الله ، تلك
الشخصية الفذة التى اثارت جدلاً لم يهدأ بعد ، ترتفع
جدران المئذنتين من الارض ، كل منهما تبدأ بقاعدة

مربعة ضخمة تميل جدرانها ميلا خفيفا مما يذكرنا بالاهرامات المربعة ما هما الا معطفان من الحجر ، كل منهما يحيط احدى المئذنتين الاصليتين . يرتفع المعطف الغربى ٢٤ مترا فوق ارض الشارع . ويتكون من جزئين اولهما يبلغ ارتفاعه ١١ مترا . والطابق الثانى يرتفع ١٤ مترا ، اما المعطف الشمالى فيزداد ارتفاع الطابق الاول فيه مترين . وهكذا يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترا . الا يذكرنا شكل المعطفين الحجريين بذلك الوصف الذى دونه عبد اللطيف البغدادى لمنازة الاسكندرية ، تلك الجدران المائلة . ربما تأثر المهندس الذى أشرف على بنائهما بشكل المنسارة التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولم يهدمها الزلزال بعد ، ربما كان قد تأثر بشكل الاهرامات المصرية ، هنا نرصد التميز الذى بدأ فى بناء المآذن المصرية والذى سيستمر تطوره حتى تكتمل كافة عناصره فى عصر السلطنة المملوكية . ندخل الى المئذنة الشمالية من باب صغير يعلو سور القاهرة القديم الذى بناه بدر الجمالى وأخفى أحد أضلاع هذه المئذنة .

المئذنة من الداخل تتكون من قاعدة مربعة وجسم اسطوانى ، وعندما ندخل الى المئذنة من فوق السور فائنا نصبح محاذين للجزء الاسطوانى ، سلم المئذنة يدور حوله ، فوق الجدران الخارجية للمئذنة نرى زخارف ، ونوافذ تحيط بها اطرار زخرفية تتكون من وحدات هندسية مجسدة ، ووحدات زخرفية أساسها ورق النبات ، وفوق السلالم التى تصعد بنا الى أعلى نلمح زخارف ورقية ، مما يوحى لنا بمدى الجهد الذى بذله

المنمنمون والمزخرفون في تزيين المسجد ، أثناء صعودنا
تفجع آذاننا بأصوات نحيلة ، حادة منبعثة من داخل
المئذنة ، انها الوطاويط ، تعشش في الداخل ، تنهش
جوف المئذنة ، وتلوث بأصواتها السكون النهاري الجليل
الذي توحى به سيرة الحاكم صاحب المكان ويقال انها
ضخمة الحجم الواحد منها في زنة الارنب ، نصل الى
سطح المئذنة ، نصبح بجوار الجزء العلوى ، انه يتنافر
مع بقية البناء ، لا يمت اليه بأية صلة معمارية ، ولا عجب
فقد بنى في فترة متأخرة ، بالتحديد في زمن بيبرس
الجاشنكير أحد أمراء المماليك .

حدث في سنة ١٣٠٣ زلزال عنيف هدم منارة
الاسكندرية ، وهدم الجزء العلوى من مئذنتى الحاكم
بأمر الله ، وقام الامير بيبرس الجاشنكير باضافة هذين
الجزئين ، ينتصب القسم العلوى هنا من أربعة طوابق
مثمثة . تحيط بالثلاثة العليا منها صفوف من المقرنصات .
وتعلوها قبة المئذنة على شكل مبخرة ، انه نفس شكل
المئذنة التي تعلو مسجد بيبرس الجاشنكير والذي يقع
في مواجهة حارة الدرب الاصفر بالجمالية ، ويعرف هنا
باسم زاوية بيبرس حيث كان يقيم الصوفية والفقراء
يرددون الأذكار والاشعار ، في الزمن النائي البعيد ،
لكن البناء الاصلى ، فوق مسجد بيبرس يبدو متسقاً ،
اما هنا فوق مئذنتى الحاكم فانه غريب عن البناء
الاصلى ، لانه من عصر مختلف ، واذا تجاوز زمانان
مختلفان تنافرا ، واختلفا . يبلغ ارتفاع هذا القسم
سبعة عشر متراً ، أى أن البناء يرتفع عن سطح الارض
٤٦ متراً .

وفوق جبل المقطم ، بالقرب من مركز السماء تقوم
مئذنة الجيوشي (٤٧٢ هـ - ١٠٨٥ م) فى الشتاء تبدو
من خلال الضباب معلقة فى فراغ الكون ، وقد اختفى
الجبل الذى تقوم اليه فى بحر من اللبن الهائش ، تبدو
المئذنة وكأنها دعاء تجمد فى طريقه الى أعلى ، أو ابتهاج
غامض خفى ، أو رغبة من المعبود فى الوصول الى الخالق ،
انها ثانى المآذن التى وصلتنا من العصر الفاطمى ، لقد
اختفت مئذنة جامع الاقمر ، وكان قد بناها الوزير
البطائحي فى سنة ١١٢٥ ، أما المئذنة الوحيدة التى
وصلتنا من القرن الثانى عشر ، فهي مئذنة مسجد أبى
الفضنفر ، وتصور مئذنة الجيوشي مرحلة من تطور
المئذنة المصرية . فى أعلاها تلمح عنصرا هاما من
المقرنصات فى صورتها الاولى . والافريز الأدنى يشتمل
على صف من العقود ، وتلك هى المرة الاولى التى تبدو
فيها هذه الظاهرة فى عمائر القاهرة . انها أقدم مئذنة
فى ذلك الطراز المعروف باسم المبخرة ، وهو طراز
استمر مستخدما حتى الربع الثانى من القرن الرابع
عشر .

هكذا تتضح معالم المآذن المصرية الاولى . برج مربع
ينتهى بشرفة وفوقه طابق آخر مربع ، كما يبدو فى
مئذنة الجيوشي . لقد اختفى هذا الطابق فيما بعد ،
واستبدل بطابق مئذنة أبى الفضنفر ، فتحت
فيه تجاويف مضلعة الرؤوس . وارتفعت فوقه رقبة
مئذنة الاضلاع تعلوها خوذة مضلعة ، وتلك التى عرفت
باسم المبخرة ..

الباب الأخضر

بجوار الباب الأخضر لمسجد سيدنا وامامنا الحسين عليه السلام فى القاهرة شق ضيق فى هذا الجدار القديم المتبقى من البناء الاصلى .

تقول الاسطورة « ان رأس الحسين طارت من كربلاء الى هذا الموضع لمدة اربعين يوما تسبح بحمد الله ، وعندما استقرت هنا رست بجوار سيدة عجوز ، أخفت الرأس ، جاء جند يزيد اليها عندئذ اخذت رأس ابنها وقدمتها اليهم فداء لرأس الحسين . والحي المجاور للمسجد يعرف حتى الآن باسم حى أم الفلام ، أما المكان الذى استقرت فيه الرأس فلا يروح العطر منه أبدا . . فوق هذا الشق تقوم مئذنة المشهد التى شرع فى بنائها فى عصر صلاح الدين الايوبى (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) ويبدو ان الذى أنفق على تشييدها رجل صالح يدعى أبو القاسم بن يحيى ، اذ يوجد نقش على قاعدة المئذنة نصه :

« بسم الله ، أوصى بإنشاء هذه المئذنة المباركة على باب مشهد الحسين تقربا الى الله ورفعاً لمنار الاسلام الحاج الى بيت الله أبو القاسم بن يحيى بن ناصر السكرى المعروف بالزرزور تقبل الله منه ، وكان المباشر لعمارتها ولده لصلبه الاصفر الذى أنفق عليها من ماله بفية عمارتها خارجا عما أوصى به والده المذكور وكان فراغها فى شهر شوال سنة أربع وستمائة . . » .

وما تبقى من المئذنة قاعدتها الايوبية . أما جزؤها

العلوى ، فقد تهدم ، واستبدل به بناء عثمانى فى عصر الاحتلال التركى المتأخر ، ويتميز الجزء الاصلى من المئذنة بجوفاته المقرنصة الثلاثة الى تشـغلها ثلاث حشوات مطولة تزخر بحشـد من الزخارف النباتية المحفورة فى الجص ، من الطابع الاندلسى الذى نراه فى قصر الجعفرية بـسرقسطة وفى المسجد الجامع بتلمسان . ويعلو كل حشوة طاقة معقودة مقرنصة . وتشـغل الفراغين والواقعين بينهما قوعتان مقرنستان .

واذا ما انتقلنا الى شارع بين القصرين ، وفى منطقة الصاغة ، حيث سوق الذهب والفضة ، اذا رفعنا البصر سنجد مئذنة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب . انها المئذنة الوحيدة التى تبقت سليمة من العصر الايوبى . أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فى ٦٤٢ هـ (١٢٤١ م) ، فى أعلى الباب بأسفل المئذنة لوحة تشير الى الشروع فى بناء المدرسة نصها :

« بسملة . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الاعظم الملك الصالح نجم الدين بن محمد بن أبى بكر أيوب فى سنة احدى وأربعين وستمائة » .

فى تلك المئذنة نجد ان الجزء المثلثن أصبح مستقلا وبارزا بعد أن كان مندمجا فى مئذنة الجيسوشى فى مجموع البناء ، وأصبحت المبخرة أكثر وضوحا ، وخلال نصف قرن تلا سقوط الدولة الايوبية ساد نظام المباخر فى المآذن المصرية وهو طراز مصرى خالص لم يتكرر فى أى بلد آخر .

ونلاحظ ان شخصية المئذنة المصرية لم تبلور ، ولم

تتضح الا فى العصور التى نعمت فيها مصر بالاستقلال ،
الدولة الفاطمية ، ثم الايوبية ، والسلطنة المملوكية . ومن
مآذن العصر المملوكى الاول مئذنة المنصور قلاوون ، قبل
أن نصل الى بابها الصغير نعبّر ردهة طويلة ، عالية
السقف ، تذكرنا ببهو المعابد الفرعونية ، الهواء رطب ،
الى اليسار تقوم قبة قلاوون الرائعة ، التى استوحى
فى تصميمها قبة مسجد الصخرة ، والتى يرقد تحتها
الناصر والمنصور قلاوون ، نصل الى الباب الصغير الذى
يسلمنا الى سلم دائرى من الحجارة ، يستدير حول جسم
اسطوانى يمثل لب المئذنة ، يدور السلم ، تتخلل
الجدران فتحات دائرية قصيرة نلمح منها سمك جدران
المئذنة الذى يبلغ حوالى المتر ، نرى المدينة القديمة ،
القريبة والمبانى الحديثة الشاهقة عند الافق .

نصل الى القاعدة المربعة ، حيث ينتابنا الاحساس
بالعلو الشاهق اذ يرتفع جسم المئذنة النحيل ما يقرب
من ارتفاع عمارة حديثة مكونة من اثنى عشر طابقا ، واذ
نستند الى الحاجز الخشبي للشرفة نستطيع أن نلمح
افريز المقرنصات الذى يحيط بقمة القاعدة المربعة ،
والذى يرى الباحثون فى زخارفه تأثيرات اندلسية ،
تلك الزخارف تشبه زخارف مسجد اشبيلية ، قد يبدو
هذا أكثر وضوحا فى الطابق الثانى من المئذنة ، وفى
الطابق الاخير حيث نجد شبكة من المعينات الزخرفية ،
ربما يرجع هذا الى زيادة الصلات بين مصر والاندلس ،
خاصة بعد ظهور مصر كأقوى دولة اسلامية اذ قضت على
الخطر المغولى فى عين جالوت (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م)

وبروزها بوصفها القوة الرئيسية فى التصدى للخطر الصليبي فى الشام .

من فوق الطابق الثانى للمئذنة ، وبمنظرة خاطفة نجمع فترة طويلة من الزمن ، أمامنا تعلو مئذنة مسجد السلطان برقوق ، بقامتها الرشيقة وطوايقها الثلاثة المئمنة وطبقتها الوسطى المزينة بالرخام على هيئة دوائر متقاطعة ، وهذه الزخرفة الرخامية تعد الاولى من نوعها فى المآذن المصرية .

يفصل مئذنة قلاوون عن مئذنة برقوق فراغ ليس بكبير اذا قسناه بالامتار ، لكنه من عمر الزمن يبلغ مائة وعشرا من السنين ، وسط الفراغ ، نلمح مئذنة صغيرة أقل ارتفاعا ، انها مئذنة الناصر محمد بن قلاوون التى تعلو مدرسته . والتى تعلو قاعدتها زخارف جصية رائعة . هذه الزخارف بها تأثيرات أندلسية أيضا . فى هذه الساحة تنتصب مآذن قلاوون وبرقوق ، كل منها تعبر عن عصر بأكمله ، ولكنها فى مجموعها تشكل متحفا متكاملا حيا لفن العمارة الاسلامية .

وبمرور الزمن يصبح التطور فى المآذن المصرية أكثر وضوحا . لقد تضاءلت القاعدة المربعة حتى أصبحت مجرد سند لجسم المئذنة وبرز الجزء المئمن ، كما نجد فى مئذنتى الماردانى وأقبضا (٧٤٠ هـ - ١٣٤٠ م) . ومئذنتى شيخون (٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م) وربما يرجع هذا الى فيض من التأثيرات السورية التى طرات على المآذن المصرية بواسطة صناع الشام المهاجرين . نلاحظ أيضا اختفاء المبخرة ، لقد حلت مكانها دائرة صغيرة من

الحجر « جوسق » مسحوبة الى أعلى . وكانت قمة هذه المآذن من الناحية الجمالية والفنية ، مئذنة السلطان الاشرف أبى النصر قايتباى (٨٧٧ هـ - ٨٨٩ هـ) وقد استمر هذا الطراز متبعا بقية العصر المملوكى ، وان كنا نلمح بعض الاضطراب فى التطور . ويبدو هذا واضحا فى مئذنة السلطان الفورى حيث تتعدد الرؤوس فنجد أربع بدلا من واحدة ، واذ نقف فى منتصف المسافة بين الفورى والجامع الازهر نلمح التشابه بين مئذنة الفورى والاخرى التى بناها بجامع الازهر والتى يعلوها رأسان بدلا من أربع ، لابد ان المهندس شخص واحد ، أراد أن يحدث شكلا من الابتكار ، فاستحدث أربع رؤوس للمئذنة بدلا من رأس واحدة ، ولكنه تطور مفاجيء ، لا ينم عن أصالة ، أو تجديد يستند الى أصول ثابتة . مع الفزو العثمانى لمصر تتعرض المآذن المصرية لمحنة ، لقد بدأ الاحتلال التركى ومع الاحتلال يجيء الفساذى محاولا فرض طرزه وأسلوبه ، وتبدو روح المقاومة فى البناء نفسه ، ينعكس الصراع حتى على الحجر .

القلم الرصاص

فى فراغ القاهرة تنتصب مآذن نحيلة ، تنطلق الى أعلى كالحراب ، تذكرنا بالمآذن السلجوقية ، أو مآذن استانبول ، نراها فوق مسجد محمد على بالقلعة والذى بنى فى القرن التاسع عشر ، انه الطراز المعمسارى للغازى ، مآذن تركية مسحوبة ، خالية من الزخارف ،

متجهممة ، خالية . لا توحى بالسلام والدعة والابتهاال
والمناجاة الصامتة ، تلك المعانى التى تتجسد فى المآذن
المصرية الاصلية ، حتى التى تبدو فيها تأثيرات سورية
او أندلسية ، لا أدرى لماذا تذكرنى المآذن العثمانية
بالحراب .

لكن يبدو الصراع الذى كان قائما بين الروح المصرية
والمحتل العثمانى فى نماذج أخرى ، فى مسجد المحمودية
الذى أنشأه محمود باشا والى مصر العثمانى (٩٧٣ هـ -
١٥٦ م) لقد تأثر المهندس بجامع السلطان حسن وجعل
المئذنة بارزة عن المسجد ، أيضا شكل قاعدتها ، نرى
هذا أكثر فى مئذنتى جامع البردينى (١٦١٦ م) اذ تبدو
المئذنة المصرية واضحة تماما ، كما كانت زمن المماليك
الجراكسة . هنا نرى انعكاس الظروف بسرعة على
العمارة ، فى زمن محمد بك أبو الذهب (١٧٠٣ م) زميل
على بك الكبير الذى حاول الاستقلال بمصر عن الدولة
العثمانية ، وفى مئذنته المواجهة لمآذن جامع الازهر يبدو
الطراز هنا مختلفا تماما عن مآذن العصر التركى ،
اذا أنها تنتمى الى الطراز السورى المربع ، وتنتهى قممتها
بخمس رءوس ضخمة ، والاهالى فى منطقة الازهر
يقولون ان ثمة كنزا خبيثا فى هذه الرءوس ، ربما
حاول المهندس ان يستوحى مآذن الفورى ذات الرءوس
المتعددة ، لكن تستوقفنا ملحوظة غريبة فى تلك المئذنة ،
انها تشبه برج الكنيسة فى قامتها المستطيلة ، وفى
التجاويف العلوية المفتوحة ، والتى تذكرنا بمكان الناقوس
فى الأبراج الكنسية ، ولكن يبدو هذا التأثير مستوحى من

المآذن السورية التى تأثرت بأبراج الكنائس عند نشأتها .
وخلال القرن التاسع عشر ساد نظام المآذن العثمانية ،
ولكننا نلاحظ فى المساجد الحديثة محاكاة لمآذن العصور
الوسطى المملوكية ، وليس هذا لان تلك العصور شهدت
قمة التطور للمئذنة المصرية ، ولكن لان مآذن هذا العصر
تعد متكاملة العناصر من الناحية الفنية ، والجمالية .
وأرقى ما وصلت اليه المآذن المصرية .

بيوت القاهرة القديمة

قاهرة القرون الوسطى ، الشوارع ضيقة غير مرصوفة ، متعرجة ، مبلطة بالحجارة المضلعة ، تصادفنا مساحات هائلة الاتساع ، غير منظمة الشكل ، تتفرع منها أزقة ضيقة يصعب فى بعضها أن يمر رجلان بجوار بعضهما ، المنازل متقاربة حتى أن الأسطح تكاد تتلاصق ، جانباً الزقاق الضيق يتكونان من جدران هذه المنازل ، تمتد الحصر من سطح الى سطح ، صحيح أن الشارع الضيق يسبب بعض المشقة لكن هنا برودة منعشة تجيء من تيار الهواء البارد الذى يمر بين البيوت القريبة من بعضها ، ان طبيعة الجو الحار فى القاهرة حددت مدى اتساع الحوارى وطريقة بناء بيوتها كما سنرى بعد قليل ، البيوت مجموعة من الجدران الخالية من النوافذ، بين الحين والحين يمر حمار يركبه واحد من الاهالى - الحمار وسيلة المواصلات الوحيدة الرئيسية - عندئذ يضطر الواقفون الى الصاق ظهورهم الى الحائط ، بينما تلقى الجدران ظللاً رمادية تزيد البرودة .

فى نهاية الزقاق جامع صغير ، لعله ضريح أحد

الاولياء ، طليت جدرانها بمختلف الالوان من أصفر وأحمر
وازرق مما يضىء بعض البهجة على الحارة الصغيرة ،
فى جدران المنازل الخارجية لا تلمح الا المشربيات التى
تشابه كثيرا ، ان المشربيات التى تطل على الطريق
ليست فى جمال المشربيات التى تطل على الفناء الداخلى ،
فالسكان عادة يحتفظون بالمشربيات الجميلة للنوافذ
الداخلية للمنزل والتى تطل على الفناء او الحديقة ،
وهذا ما نجده واضحا الآن فى قصر المسافرخانه وبيت
السحيمى ، ومنزل زينب خاتون ، واسم « المشربية »
مشتق من الفعل « يشرب » ثم استعمل للنوافذ المصنوعة
من الاعمدة الخشبية الرفيعة المتشابكة ، لان القلل كانت
توضع عليها لتبريد الماء وفى اغلب الاحيان نجد رفا
صغيرا يبرز الى الخارج توضع عليه اوانى الفخار لتبرد
بفعل الهواء وفى قصر المسافرخانه نجد طريقة اخرى
لتبريد الماء ، فوق أحد أقسام البيت عدة رفوف رخامية
تتخللها فجوات توضع فيها الاوانى لتبرد فى الهواء ،
ويطلق على هذه الرفوف المثبتة فى تجويف واسع
بالجدار اسم « مزيرة » .

والمشربية لا تسمح للجيران ان ينظروا ما وراءها ،
غير انها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح
بتخلل الهواء اليه ، فالمشربية مكان رطب للانسان تماما
كما هو لاوانى الماء ، كما ان الجالس فيها يمكنه رؤية
المارة فى الطريق من حيث لا يرونها ، مع هذا توجد نوافذ
صغيرة مناسبة فى المشربية يمكن دفعها الى أعلى فى
مجار صغيرة محفورة فى الخشب اذا رغب اصحابها فى

ذلك وكثيرا ما كانت نساء القاهرة الجميلات ينظرون من هذه النوافذ الصغيرة ليشترين شيئا من أى بائع جوال وليستعرضن جمالهن فى نفس الوقت ..

ها نحن أمام باب من أبواب هذه البيوت ..

الباب مقوس من أعلى ، مزخرف ببعض النقوش العربية ، وربما آية من القرآن الكريم ، نطرق الباب بمقبض نحاسى على هيئة كف آدمى ، قد تضطر الى الانتظار طويلا حتى يسمعك من يدخل الدار ، يصادفنا ممر ينعطف فجأة بعد خطوتين ، يحول دون مشاهدة الفناء الداخلى ، فى نهاية الممر نجد أنفسنا أمام حديقة جميلة تتوسطها نافورة مرصعة بالرخام الملون ، فى أقصى الفناء نلمح بئرا للمياه ، الهدوء مستكن وناعس فى الهواء حتى لتظن انه لا أثر للحياة هنا ، الابواب مغلقة ، غرف النساء معزولة فوق ، ينظرون الى الفناء من خلال هذه المشربيات الدقيقة الجميلة ، يزداد احساسك بالبعد عن ضجة الطريق وصخبه ، فعلا ، ما أبرع المهندس الذى بنى هذا البيت ، هنا لا يمكن لجارك أن يراك ، لا يمكن للضيف ان يرى الحريم ، يمكن عن طريق المشربيات ، وملاقف الهواء السماح لاكبر كمية هواء بالدخول ، وكمية ضوء قليلة .

لو دخلنا الغرف السفلية ، وتمكنا من دخول الحرم ملك ، نلاحظ أن الجو الحار لم يكن العامل الوحيد الذى أثر فى البناء وشكله ، انها ظروف المجتمع المصرى أيضا ، وضع المرأة الاجتماعى ، جو العلاقات السائدة بين الامراء وبعضهم ، وبين كبار رجال الدولة .

هذا كله ينعكس على البيت القاهري القديم .
قصر المسافر خانة « حارة درب الطبلاوى بالجمالية » .
بيت السحيمي « الدرب الاصفر بالجمالية » .
بيت مصطفى جعفر « شارع المعز لدين الله وناحية
الدرب الاصفر » .

قاعة محب الدين « بيت القاضي بالجمالية » .
قاعة الامير بشتاك « شارع المعز لدين الله » .
منزل جمال الدين الذهبى « حارة خوش قدم
بالفورية » .

منزل السنارى « السيدة زينب » .

هذه بعض البيوت القاهرية القديمة التى بقيت حتى
زماننا هذا ، مجموعة لا يوجد مثلها فى اى عاصمة فى
اى بلد أو مدينة بالعالم قاطبة ، والى جانب انها تضم
تراثا معماريا وفنيا وثقافيا خظيرا ، فانها تقدم لنا صورة
صادقة للحياة فى المجتمع المصرى .

اننا نجد تنوعا واختلافا فى نوعية وطرز هذه البيوت ،
صحيح انها تبدو متشابهة ظاهريا لكنها تختلف فيما
بينها اختلافا كبيرا ، ها هى الفخامة والاتساع فى قصر
المسافر خانة (شيد عام ١٧٧٩ م - ١١٩٣ هـ) فيه
أجنحة متعددة ومنشآت مختلفة ، وبرغم هذه الضخامة
فان ما نراه اليوم ليس الا جزءا متبقى من السراى
الاصلى ، والتى بنيت على مرحلتين ، الاولى عام ١١٩٣ هـ
وبناها محمود محرم أحد كبار التجار المصريين ، أما
المرحلة الثانية فأنشأها ابنه عام ١٧٨٩ م . . اننا نجد
الركة والجمال المتواضع الرفيع وجو الأسرة المصرية فى

بيت السحيمي ، الذى بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى
سنة ١٠٥٨ هـ - ١٦٤٨ م ، وعندما انتقلت ملكية المنزل
فى سنة ١٧٩٧ م - ١٢١١ هـ الى الشيخ اسماعيل
شلبى انشا الجزء البحرى الحسالى من البيت ويضم
القاعة الكبيرة ، والقاعة الارضية ذات الفسقية الرخامية
النادرة ، والحجرة العلوية الجميلة المكسوة بالقيشانى ،
اما البساطة وقلة الزخرفة مما يوحى بآثار من بخل تاجر
حريص فنجده فى منزل جمال الذهبى شهنذر تاجر
الغورية أيضا بيت مصطفى جعفر والسنارى .

ان كل بيت من هذه البيوت يتميز ببعض خصائص
غير موجودة فى البيوت الاخرى ، تنفرد المسافر خانة
بأقرب وأطرف ما وصل اليها فى عمارة البيوت المصرية ،
الجزء المخصص للثور الذى يدير الطاحونة ، ان ضخامة البيت
وعلوه ، حتمت أن توجد طاحونة ترفع الماء من أسفل ،
وقد وضع المهندس المصرى هذه الطاحونة فى الطابق
الثانى ، ويصل اليها الثور المخصص لإدارتها عن طريق
سلم صنع خصيصا له ، بحيث يمكنه النزول أو الطلوع
بسهولة كافية ، توجد أيضا بالمسافر خانة أضخم مشربية
وصلت اليها من البيوت المصرية القديمة ، وهى التى
تمثل واجهة المبنى القبلية المظلة على الفناء الداخلى ،
أيضا يوجد فيها حمامان ، حمام صيفى لا تستعمل فيه
غير المياه الباردة ، وحمام شتوى يتم تسخين الماء فيه
بطريقة معقدة بواسطة مواسير من نفس مواد البناء
تحت الارض ، كانت تقوم بعمل السخان الكهربائى
الحديث أما الهواء فتجده فى أقصى نقطة بالبيت ، عن

طريق « ملاقف الهواء » أى فتحات واسعة فى أعلى نقطة
بالبيت تدفع الهواء الى اقصى نقطة فيه بحيث يغمر البيت
جو شبيه جدا بالبرودة التى تحدثها أجهزة تكييف
الهواء ، يوجد أيضا عدد من الابواب السرية التى تبدو
كأنها جزء من الجدار الخشبى وعندما تفتح تجد سلالم
تؤدى الى الفناء أو الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، أو
الى حجرة أصفر ، نحار فى سبب وجود هذه الابواب ربما
كانت لسهولة حركة الحريم بعيدا عن الغرباء عندما كان
البيت مملوكا لمحمود محرم ، أو لأسباب غامضة ربما
كانت سياسية عندما تحول البيت الى مكان للضيوف
الكبار فى عهد محمد على ، ومن هنا جاء اسمه
المسافرخانة .



فى بيت السحيمى لا نجد فيه هذه الفرف المعقدة
المتداخلة كما فى المسافرخانة ، انه بيت بسيط جميل ،
فيه عذوبة وسماحة جو الاسرة المصرية ، تمضى غرفة
كالحن الهادىء العذب ، تتدرج فى انتظام ، كل منها
تؤدى الى الاخرى عندما تقف فى الفرتة التى كانت
مخصصة لقراءة القرآن الكريم فى رمضان ، وللسهرات
أوانى الماء الرخامية فى الاركان ، المقامد العالية ، تملؤها
بالخيال بهؤلاء الاجداد المشايخ تغمر روحنا رائحة
هذه الأيام البعيدة المطوية فى الزمن ، تطالعنا النوافذ
الصغيرة المخصصة للحريم ، ينظرن منها دون أن يراهن
أحد ، نشعر بجو الاسرة وعدم الحرية الذى كانت تعيش
فيه جداتنا ، كانت حياة الحريم محصورة فى هذه

القاعة الجميلة المحاطة بالمشربيات فى بيت السحيمي ،
او فى الغرف العلوية بمنزل جمال الدين الذهبى ، ان
غرف الحريم دائما فى الطابق الثانى ، قريبة من الحمام ،
ودورة المياه دائما بضعها المهندس عالية عن الهسواء
حتى يضع أى اثر للروائح الكريهة ، والبيوت المصرية
القديمة انفردت بدورات المياه الخاصة فى الوقت الذى
لم تكن أوربا تعرفها ، لقد كان جنود الحملة الفرنسية
يعجبون جدا اذ يرون المصريين يدخلون فى بيوتهم الى
هذه المقاصير الفسيحة التى يقضون فيها حاجاتهم .

ان غرف الحريم هذه لا ينفذ اليها غير رب البيت ،
وكلمة حريم تعنى محرم على الفريب محلل للسيد نفسه
والدهاليز المؤدية الى الحريم لا تمضى فى مستوى واحد
بل تهبط فجأة كدرجة السلم لتستمر من جديد ، فلو
مشى فيها أحد الغرباء فى الظلام وكان جاهلا بمواضع
البيت لسقط ، عندئذ يكتشف أمره بسهولة ، لقد
كانت حياة جداتنا مثيرة للكآبة والملل ، كانت تدور حول
المأكل ، والملبس ، والنوم والجلوس على الديوان ساعات
كثيرة ، والاستفراق فى الاحلام ، ومحاولة ارضساء
الزوج ، وكسب محبته وقصرها على الواحدة منهن ،
ويقول ستانلى لين بول فى كتابه عن القاهرة ، ان امرأة
انكليزية سألت احببى القاهريات كيف تمضى وقتها ؟
فأجابت : « أننى أجلس على هذه الأريكة ، فاذا ما انتابنى
الملل نهضت لأجلس على تلك » .

فى الفناء المتسع لقصر المسافر خانة ، هنا حيث

الهدوء ، أصوات العصافير المعشعشة في أعلى البيت تحيطنا علامات التجديد الذي تم أخيرا في القصر لتحويله الى بيت للفنانين ، ان الفنان الشاب عز الدين نجيب هو المسئول حاليا عن النشاط الثقافي في المسافرخانة ، وله خبرة عريضة في قصور الثقافة الجماهيرية لكن الامر هنا يختلف ، ان الظروف التي تحيط بالمسافرخانة غير الظروف التي يعمل فيها أى جهاز للثقافة الجماهيرية ، ان المسافرخانة في مكان يصعب الوصول اليه لمن كان غريبا عن الحي ، حتى أهالي الحي لا يعرفها منهم غير قليلين ، وقديما كانت المسافرخانة بيتا مهجورا تحيطه الخرافات ، يقول انه من الضروري جدا قبل تحويل المسافرخانة الى مركز ثقافي أن يتم ربط أهالي الجمالية بهذا الاثر العظيم ، لابد أن يعي أهالي الحي تاريخ هذه الآثار المهمة الموجودة بينهم ، هنا تدب الحرارة في الحجارة الرمادية وتنطق بالآلاف الأشياء .

في مواجهة الحديقة ، نلمح عامودا رومانيا بديعاً يحمل السقف الخشبي الرائع الذي لا يوجد مثيله . فوق السقف توجد القاعة الرئيسية بالدور العلوى ارضيتها مفروشة بالرخام الخضردة وصدرها مكسو بالقيشاني ، وفي حجرات البيت نلتقي بالفنانين الذين يقيمون حاليا فيه ، عبد الوهاب مرسى الذي ينمكس الجو المحيط به في أعماله انعكاسا واضحا ، وقد استطاع عبد الوهاب ان يعيد ملامح الحياة القديمة في غرفته البديعة بفرشها بأثاث قديم أيضا : وسائد وحشايا تماثل ما كان موجودا في الاصل .

كما نلتقى بالفنانين جمال محمود ، مصطفى الفقى ،
احمد نبيل ، صبرى منصور ، محمد حسنين ، محمد
مصطفى ، الدكتور رمزى مصطفى ، حسين سليمان .
والحقيقة انه قبل ان يتم تحسين البيت واصلاحه ،
والاهتمام به من جانب مصلحة الفنون الجميلة ، كان
البيت مهددا بالزوال ، وكانت ظروف الاقامة فيه تكاد
تكون مستحيلة ، ومع هذا فقد عرف الطريق اليه
الفنانون ، عبد الوهاب مرسى ، واحمد نبيل ، ومصطفى
الفقى ، وصبرى منصور .

وينوى الفنان عز الدين نجيب ، اقامة عدة معارض
فنية بالقصر ، وتقديم مواد ثقافية يتم من خلالها
تعريف الاهالى بتاريخه وتاريخ الجمالية ، والآثار التى
تحويها ، ويوجد فى المنطقة عدد كبير من الشباب المثقف
لا بد من ربطه بالبيت ، وكثيرون منهم على استعداد
للتعاون مع الفنانين ، وعندهم الوعى الكامل بأصالة
منطقتهم ، وقد بادر ثلاثة من الشباب الجامعى فى حارة
درب الطبلأوى الى المساهمة فى نشاط القصر ، وهم
احمد حسنى ، وحسانى ، ومحمود شمس الدين ، وينوون
تركيز نشاطهم فى فترة الاجازة الصيفية ، يقول عز الدين
نجيب ، سيتم تحويل البيت الى مركز ثقافى حى أيضا
سيتم تنظيم زيارات للمثقفين لتعرفهم على البيت وعلى
المنطقة ، وهذا يحدث فعلا الآن .

غير اننا نلاحظ ان كثير من المثقفين الذين يجيئون الى
الحى ، يتجولون فيه بخلفية ملخصها ان كل ما يراه شيء
غريب ، الناس تحف من القرون الوسطى ، يقف بعضهم ،

يشير الى سلة او قلة او حزمة ثوم موضوعة على نافذة
ويصيح ، يا سلام شايف اللقطة ، ان هذا يزيد الفجوة
بين المثقفين وبين الاهالى ، يقول عز الدين ، ان مثل
هؤلاء ليس لديهم الاحساس بالاصالة المتمثلة فى تاريخ
الحى الناتج عن جهلهم به ، يستحيل التعاون مع مثل
هؤلاء ، اننا نجد صورة اخرى ، كثير من المثقفين الذين
يدركون تاريخ مصر وعظمتها واصالتها بداوا يرتبطون
بالحى عن طريق تردددهم على البيت وبقية الآثار ، ان
جدورنا تمتد هنا وتتأصل فى هذه المنطقة العريقة ،
والمرجو ان يتحول المسافرخانة الى مركز ثقافى يجمع
الفنانين التشكيليين والادباء يستلهمون من خلاله تاريخ
مصر ويعبرون عنه فى اعمالهم .



الحقيقة ان الجهد الكبير الذى قامت به وزارة الثقافة
اثناء تولى الدكتور ثروت عكاشة امورها فى اصلاح
المسافرخانة وبيت السحيمى وبقية البيوت الاثرية
يستحق التقدير ، كان من الممكن ان تتلاشى هذه المباني
فى خلال سنوات قليلة ، وكاد يحدث هذا بالفعل
بالنسبة للمسافرخانة التى انتزع منها خلال السنين
الماضية الكثير من اخشابها الرائعة ، ويكفى انك لو تأملت
بعض عيش الفراخ فوق أسطح بيوت درب المسمط ،
ودرب الطبلاوى ، لوجدتها مصنوعة من اخشاب مشربيات
توافق نفس الطراز المصنوع منه نوافد المسافرخانة واننا
نرجو ان تلقى بقية المباني الاثرية ، نفس العناية ، ايضا
حتى الجمالية ككل ، فى مواجهة عمليات الهدم التى تقوم

بها بعض الجهات الأخرى تحت حجة التوسع والتجميل
وبالدات فى حى الجمالية الذى تواجه شخصيته الأصلية
الآن خطرا فادحا بعمليات الهدم التى تزحف فيه كسرطان
الدم . اننى أنصح السادة الإداريين الذين أصـدروا
قرارات إدارية لهدم بعض أجزاء الحى أن يعرفوا جيدا
تاريخ مصر ، وأن يقرأوا البحث الرائع الذى قدمه
المستشرق الفرنسى جاك بيرك عن « حى الجمالية » وأن
يعرف الأجنبى عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا فهذه
والله العظيم مصيبة .

الباب الدامى

» . . منذ عشرات السنين فقد باب زويلة أهم وظائفه ، فلم يعد يمثل أحد مداخل القاهرة بعد أن اتسعت المدينة ، وامتدت مباني الإهالى خارجها فيما تلى العصر الفاطمى من حقب ، ثم بطل تعليق رءوس المتمردين عليه منذ أوائل القرن الماضى ، حتى متولى حسبة القاهرة الذى كان يتخذ مكانا مجاورا له لم يعد يجلس فى نفس المكان لان الوظيفة نفسها بطلت منذ القرن الماضى ، ولم تترك أثرا الا على السنة بعض الناس الذين نسبوا الباب الى المتولى ، فصار اسمه باب المتولى ، ما بقى لباب زويلة حتى يومنا هذا قيمة مستمدة من عمره الضارب فى الزمن لمدة ألف سنة ، وبقايا اعتقاد قديم لدى بعض نساء العامة أن من لا تحبل ، تستطيع ان تدق مسمارا وتعقد عليه بعض الخيوط ، عندئذ قد تتحقق أمنيتها ، وتنجب ولدا ، غير ان باب زويلة لا زال يحتفظ بعلامات من الوظيفة التى ظل يمارسها لاطول فترة من الزمن ، انه المكان الذى كانت تعلق عليه الرءوس ، واذا دقت النظر فقد تلمح بقايا دماء جفت منذ قرون ، فى

هذا الوضع علقت رءوس فلاحين فقراء ، وأغراب ،
واعداء ، وسلاطين حكموا مصر .



مع الفتح الفاطمي لمصر جاءت قبائل مغربية عديدة ،
أحداها كانت تسمى «زويلة» ، عبد الله المهدي (٢٩٧ هـ -
٣٢٢ هـ - ٩٠٩ - ٩٣٣) . وعندما جاءت قبيلة
زويلة احتلت جزءا كبيرا من القاهرة ، مكانه الآن حارة
اليهود بشارع الموسيقى ، إليها ينسب هذا الباب الذي
كان أحد ثمانى أبواب اختطها جوهر الصقلي في السور
الذي أحاط به القاهرة ، ويبدو أن باب زويلة كان في البداية
مكونا من جزئين متجاورين ، وعندما جاء المهز لدين الله
إلى القاهرة مر من أحد القسمين ، فتفادى الناس بذلك ،
وأهملوا المرور من القسم الثاني الذي قيل عنه أن من
مر منه لم تقض له حاجة ، واستمر الأمر حتى سد ،
وفي العصر الفاطمي كانت القاهرة مقصورة فقط على
سكنى الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وكان المواطن
المصري لا يستطيع اجتياز أبواب القاهرة الملكية إلا
بتصريح خاص ، عاشت أسوار القاهرة الذي بناها جوهر
الصقلي ثمانين عاما ، كانت من الطوب اللبن ، ولم تعد
صالحة للأغراض الدفاعية ، فما أن استوزر المستنصر
أمير الجيوش بدر الجمالي حتى أنشأ سورا آخر من
الحجر ، بعد أن مد مساحة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا
إلى شمال السور القديم ، وحوالي ثلاثين مترا إلى
الشرق ، ومثلها إلى الجنوب ، ويقول المقرئ أن بدر
الجمالي استعان بثلاثة أشقاء أصلهم من مدينة الرها

بشمال العراق في بناء هذا السور وبواباته ، وكان
 باب زويلة هو البوابة الرئيسية في السور الجانبى ، وهو
 المتبقى حتى الآن ، الى جانب ثلاثة بوابات وصلن
 الى عصرنا من البوابات الاصلية ، باب الفتوح ،
 بوابة النصير ، بوابة البرقية ، ويقول
 المقرئى : « وقد اخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن
 الشرق انه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظمة باب
 زويلة ولا يرى مثل مئذنتيه اللتين عن جانبيه ، ومن
 تأمل الأسطر التى كتبت على أعلاه ، من خارجه فانه
 يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر ، وتاريخ
 بنائه ، وقد كانت المئذنتان أكبر مما هما الآن بكثير ، هدم
 أعلاه الملك المؤيد شيخ المحمودى الذى بنى الجامع داخل
 باب زويلة ، وعمل على البدلتين منارتين ، والمئذنتان
 قائمتان حتى الآن ، خلال العصر الفاطمى لم يستخدم
 باب زويلة مكانا لتعليق رءوس المتمردين ، لقد كان
 أحد أبواب المدينة المقدسة ، ولا تسجل المراجع التاريخية
 اى حادثة اعدام تمت عند الباب ، ويبدو ان طبيعة
 العصر الفاطمى وما حفل به من استقرار كانت لا تتيح
 فرصا كثيرة لمظاهر الشنق العلنية ، صحيح ان ثمة
 اضطرابات عديدة وقعت ، وكثير من القتل راحوا خلال
 المعارك بين الاطراف المتنازعة ، ولكن تعليق الرءوس
 بشكل علنى لم يسجله لنا التاريخ كما سيحدث خلال
 العصور التالية ، واذا رحلنا مع المؤرخ ابن اياس فى
 كتابه : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فسنجد
 يسجل أول حادثة صلب علنية فى النصف من شعبان
 سنة ٦٦٥ هـ ، عندما شن السلطان الظاهر بيبرس

البندقدارى حملة لابطال الحشيش ، واضراب الخمارات ، ومنع العاهرات ، فى تلك الاثناء ظفر والى الشرطة بشخص يسمى ابن الكازرونى ، وكان سكرانا ، فأشهره فى القاهرة ، وعلق الجرة والقدح فى عنقه ، وصلبوه على باب النصر ، لم يصلب على باب رويلة ، ويبدو أن الصلب كان يتم فى الأماكن الظاهرة للناس بدون تخصيص مكان معين لذلك ، وأحيانا كان يتم على باب القلعة نفسها كما حدث فى شهر ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ ، عندما وقعت فتنة بين الامراء والسلطان ، وتم القبض على خمسة امراء هم الامير ارغون شسياه ، والامير صرغتمشى ، والامير بييغا الساقى ، والامير بشتاك الكرىمى ، والامير ارغون العمرى الصربى ، تم اعدامهم ، وعلقت رءوسهم على باب القلعة ، ولكن يبدو أن مثل هذا الشرف لم يكن يحظى به الا الامراء ، وذوى المراتب العليا عند تمردهم ، ووقوعهم فى قبضة السلطان ، والقصد من تعليق رءوسهم على باب القلعة هو ارباب الامراء الباقين ، ولا علاقة للشعب بالامر اذن . . لماذا تعلق الرءوس على باب النصر او باب رويلة ؟

الخنساقاة

فى سنة ٦٩٤ هـ ، وفى يوم عاشر المحرم ، ركب جماعة من المماليك تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة ، وهجموا على اصطبلات الناس ، وأخذوا خيولهم ، فلما طلع النهار ارسل الامير كتبغا قبض على من فعل ذلك

من الممالك ، وقطع أيديهم ، وطاف بهم القاهرة ، ثم صلبهم على باب زويلة ووسط منهم جماعة (أى قسم أجسادهم بالسيف الى نصفين ، نصف علوى وآخر سفلى) . تلك أول حادثة صلب يخبرنا بها ابن اياس فى كتابه ، تتم على باب زويلة ، ويبدو اننا لن نسمع منذ الآن فصاعدا الا عن مكان واحد تتم فيه هذه المهام ، وهو باب زويلة ، وهكذا أصبح من نصيب هذا الباب ان يكون مقرا للرءوس المقطوعة ، ليبت الذعر والخسوف فى النفوس ، بينما نجد الباب المقابل له ، والذي يقع عند نهاية الطريق ، باب الفتوح ، يمثل الباب الرسمى للمدينة ، فعنده تبدأ مواكب السلطان اثناء عودته ، او تنتهى اثناء خروجه ، وكان السفراء يقبلون الارض امامه ثلاث مرات قبل دخول المدينة متوجهين الى القلعة ، مقر حكم السلطان .

فى سنة ٧٣٩ هـ ، ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ، فاشتهر امرها بين الناس ، فكانت تحتال على الاطفال والنساء ، وتخنقهم ، وتأخذ ما عليهم من الثياب ، فلما شاع امرها ، وبلغ السلطان ، رسم لوالى القاهرة ان يقبض عليها ، فلا زالوا يتبعونها حتى قبضوا عليها ، وشنقوها على باب زويلة ، وفى مثل هذه المناسبة يتجمع الناس للفرجة ، ويبلغ الزحام أشده عند باب زويلة الذى يبدو ان اختيساره لهذه المهمة تم نتيجة لكثافة حركة الناس عنده ، انه الباب المؤدى الى أشد مناطق القاهرة ازدحاما ، ثم انه يتوسط مجموعة من الاسواق المتتالية التى لا تخلو من الرواد ليلا او نهارا

ومنه يخرج الناس متجهين الى مناطق القاهرة الجنوبية
التي كانت عامرة بالناس ، كما ان اى متجه الى القلعة
لا بد ان يمر به ، سواء كان اميرا ، او سفيرا اجنبيا ،
كان الباب صرة القاهرة ، وعنده لم تتوقف الدماء عن
التدفق ..

القتل ظلما

وكثيرا ما كانت تختفى المأساة وراء بعض الذين عرفت
وعوسهم الطريق الى باب زويلة ، في رجب سنة ٧٨٢ ،
ارسل الاتابكي برقوق مرسوما الى خليل بن عرام نائب
الاسكندرية ليقتل الامير المملوكى بركة الذى كان مسجوناً ،
وعندما انتشرت اخبار القتل ثار مماليك بركة على
الاتابكي برقوق ، فأنكر برقوق انه امر بقتله ، وارسل من
أمر بالقبض على خليل بن عرام نائب الاسكندرية الذى
راح يصيح ، والله ما قتلتة آلا بمرسوم الاتابكي برقوق
وقد سرق المرسوم منى ، بينى وبينكم الله ، لكن امور
السياسة لا تعرف الهزل ، ولا مجال كمسا يبدو
للأخلاقيات فيها ، لقد أمر برقوق بقتله ، فدقت المسامير
فى كفيه ، وأركبوه على جمل ، ونزلوا به من القلعة ،
وهنا هجم عليه مماليك بركة وقطعوه ، وشقوا بطنه ،
وأخرجوا قلبه ، ثم علق ما بقى منه على باب زويلة ،
يقول ابن اياس ان هذه الواقعة صارت مثلاً عند
المصريين ، « نعوذ بالله من حمول ابن عرام » ، ويورد ابن
اياس شعرا مناسبا للواقعة :

مخالط السلطان في محنة
يرتقب الاوقات في عكسه
ان شره اسخط خلافه
او ساءه خاف على نفسه

ومن الملاحظ ان معظم الامراء الذين يتآمرون على السلطان كانوا يشنقون او يعدمون بعيدا عن باب زويلة ، اما في بيوتهم او القلعة ، او يرسلون الى سجن الاسكندرية الذي كان بمثابة منفى أيضا للسللاطين المخلوعين ، ولم يسجل التاريخ ان سلطانا قد قطعت رأسه وعلقت على باب زويلة من الذين خلعوا من السلطنة ، باستثناء واحد فقط حدث في احدى اللحظات الحاسمة في التاريخ ، عندما علق رأس السلطان الشهيد طومان باي ، بعد قطعه على مرأى من الاهالى ، بواسطة الجنود العثمانيين الذين غزوا مصر ، وحولوها من سلطنة مستقلة الى ولاية تابعة ، وكان ذلك من عجائب الدهر ، لقد قاومهم طومان باي حتى الرmq الاخير ، ثم علقت رأسه فوق باب زويلة ، وأعيد تمثيل المشهد في المقياس أيام السلطان المنتصر سليم العثماني ، عندما صنع المخايل ديكورا يشبه باب زويلة ، وصور اعدام السلطان طومان باي ، وانقطاع الحبل به مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل بمائتي دينار ، وألبسه قفطان مخمل مذهب ، ودعاه الى استامبول ليتفرج ابنه على ذلك .

وكان باب زويلة يشهد تعليق رءوس بعض الامراء احيانا ، كما حدث في شوال عام ٨١٨ هـ ، عندما علقت

وعوس بعض الامراء الصفار الذين تأمروا مع الامير قايتباي ضد السلطان المؤيد ، ويبدو ان باب زويلة كان قد صار ستارا للرعب ، فعند تعيين شخص اسمه صدر الدين العجمي في منصب الحسبة في محرم سنة ٨٢٣هـ ، يذكر لنا المؤرخ ابن اياس ان الامير ططر ، أحد كبار رجال الدولة وقتئذ قال له ..

« لا تظلم أحدا من السـوـقة والا شنتك على باب زويلة .. » .

وأحيانا كان الباب الدامي يشهد نهايات بعض الاحداث الغريبة ..

ثورة العبيد

في شهر ذو القعدة سنة ٨٤٩ هـ ، قام جماعة من العبيد السود بتعدية النيل الى بر الجيزة ، وأقاموا في الخلاء ، ونصبوا خيما ، وعلقوا على احدى الخيام الكبيرة سنجقا ، وجعلوا لهم سلطانا ، ووزيرا ، ودوا دارا ، وجعل سلطانهم يجلس على دكة ويحكم بين العبيد ، ويطلب من العبيد من هو معاد لهم ، ويأمر باعدامه بين يديه ، ثم أصدر عدة قرارات بتعيين أمير كبير ، وصاحب حجاب ، وأرباب وظائف ، باختصار بدأ ينشئ نظاما موازيا لنظام السلطنة بما في ذلك نائب الشام ، ونائب طلب ، ونواب لجميع البلاد ، يقول ابن اياس :

« فلما بلغ السلطان ذلك انحصر الى الغاية ، وصاروا العبيد يقطعون الطريق على الناس ، وينهبوا المفلوب ،

ويأخذوا خراج المقطعين وضيافتهم ، فعين السلطان لهم تجريده ، فتوجهوا اليهم في المراكب ، فتقاتلوا معهم وكسروا سلطانهم وشنقوهم ، وسجنوا جماعة منهم وهرب الباقون ، ثم ان السلطان نادى في القاهرة بأن كل من عنده عبد كبير يطلع به الى باب السلسلة ويقض ثمنه » .

أمر السلطان باعدام قادة هذه الثورة ، ونفى ما بقى من العبيد الى بلاد العثمانيين ، وأنهى وجود العبيد « الشنطرة » من مصر ، وكثيرا ما كانت تعلق رءوس العربان في صحارى مصر على البوابة ، وكان بعض الذين يلقون حتفهم على تلك البوابة قد ارتكبوا حوادث طفيفة للغاية ، ونلاحظ تكرار ذلك بعد الفزو العثماني لمصر عام ٩٢٢ هـ ، اذ يشنق ملك الامراء خاير بك فلاحا فقيرا لأنه اقتلع عودين من خيار الشنبر (نبات طبي) ، وطوال الاحتلال العثماني تتكرر حوادث الشنق ، والاعدام ، بجوار البوابة لاتفه الاسباب ، حتى يذكر لنا الجبرتي معلقا ، « مع ان الزيادة سارية في المبيعات والمشتريات من غير انكار » ، لكنه الظلم الفادح ، ولا معقولية ماجرى خلال هذا العصر ، الى جانب ذلك فان بعض الدين سلكت حياتهم طرقا غير عادية ، كانوا احيانا يلقون مصيرهم فوق هذه البوابة الدموية ..

الصعود والهبوط

في يوم الاثنين الثالث والعشرين من محرم سنة ٩٠٩ هـ ، أمر السلطان الفوري ، بشنق على بن أبي الجود على باب زويلة ، فشنق ، وظل جثمانه معلقا لمدة

ثلاثة ايام ، كان على بن ابي الجود قد وصل الى اعلى
مناصب الدولة ، تولى نظارة الاوقاف وعدة مناصب
اخرى هامة فى الدولة ، منهـا ديوان الوزارة ،
والاستادارية ، واصبح متصرفا فى امر المملكة ، وظهر
الظلم الفاحش بالديار المصرية ، فخاف الناس منه ودخل
فى قلوبهم الرعب الشديد منه ، وكان على هذا أصله من
العامة ، وكان أبوه نجارا اسمه المعلم حسن ، ثم بدأ
يصنع الحلوى وسمى نفسه « أبو الجود » ، واتخذ له مكانا
أمام حمام شيخو ، واستمر حتى مات ، عندئذ حل مكانه
ابنه على ، الذى كان يقلى الشبك بيده ، ثم بدأت رحلة
صعوده عندما التزم بتوريد مال معين على أحد المناطق
الصفيرة ، وهجر بيع الحلوى ، ثم التحق بوظيفة صغيرة
عند نرى بردى الاستادار ، ثم انتقل للعمل مع الامير
طومان باى ثم انتقل للعمل مع الامير الغورى قبل أن يتولى
السلطنة ، فلما أصبح سلطانا أصبح مقربا منه ، وجاء
على الناس بالظلم ، ويبدو ان البعض صار يدس له عند
السلطان حتى وقع المحذور فى رمضان سنة ٩١٨ هـ ،
عندما تغير خاطر السلطان عليه ، وتلك العبارة « تغير
خاطر السلطان » يوردها ابن اياس ، وسائر المؤرخين
عندما ينقلب مزاج السلطان على أمير مقرب ، أو صديق
له ، فيتبدل حال الأخير عندئذ ، وينقلب ، لقد قبضوا
على حاشية على ابن ابي الجود ، وأحاطوا على موجوده
(أى على ثروته) ، وسلمه السلطان الى موظف جديد
صاعد هو الزينى بركات بن موسى ، ليعاقبه ، ويظهر
ما خفى من أمواله ، ثم قام السلطان بضربه بنفسه ،

ثم سلمه الى الوالى ليواصل تعذيبه ، ثم أمر باعدامه ،
ثم . . استقر جثة هامة فوق باب زويلة .

معتقدات

وأحاط الناس باب زويلة بالعديد من المعتقدات ، فقد
اعتقد الكثيرون انه مركزا لاقامة القطب المتولى ، ويقول
ادوارد لين فى كتابه « المصريين المحدثون » ان بعض
المشايخ أخبروه بوجود القطب المتولى الذى يراقب الاولياء
جميعهم ، مثل النقباء والانجباب ، وكثيرا ما يظهر القطب ،
لكنه لا يعرف ، وهو يظهر دائما متواضعا ، رث الثياب ،
ولا يشتد فى مؤاخذه من يخسالف الدين او يناصره
بالتقوى ، ومع انه يختفى دائما ، فان اماكن وجسوده
معروفة ، لكنه قليلا ما يظهر فيها ، والمعتقد ان القطب
يكون فوق الكعبة ، وهو يصيح مرتين فى الليل قائلا :
« يا ارحم الراحمين » . ويسمع المؤمنون حينئذ ذلك
الدعاء من مآذن الكعبة ، ان سطح الكعبة هو المركز الرئيسى
الذى ينطلق منه القطب ، لكن بوابة زويلة هى مكانه
المفضل فى القاهرة ، ومن هنا أصبح الناس يسمونها
« بوابة المتولى » وحتى الآن يطلق عليها ذلك الاسم ،
ويقرأ المارة الفاتحة عند مرورهم بها ، ويتصدق البعض
على الشحاذين الجالسين هناك ، ويذكر الجبرتى فى
حوادث شهر رمضان سنة ١١٢٣ هـ ، ان واعظا روميا
جاء وجلس فى احد المساجد ، وراح يهاجم ما يفعله
المصريون عند ضرائح الاولياء عن ايقاد شموع وقناديل ،

وتقبيل أعتابهم ، وقال ان ذلك كفر ، وهاجم وقوف
الفقراء عند باب زويلة في ليالى رمضان ، وتسبب في
فتنة كبيرة بالقاهرة ، ويصف ادوارد لين أحد الشحاذين
الذين كانوا يجلسون عند الباب ، ويقول ان الناس كانت
تعتقد انه من خدام القطب ، ويدق المصابون بالصداع
مسمارا في الباب لفك السحر ، أما المصابون بوجع
الاسنان فيخلعون سنا ويولجونها في أحد الشقوق ، أو
يلصقونها به بأى حال آخر ، وكثيرا ما يحاول بعض
الفضوليين الاختباء وراء الباب ، أملين عبثا اختلاس
النظر الى القطب ، في لحظة من لحظات ظهوره النادرة ،
ويصف ستانلى لين بول (١) معتقدات الناس في القطب
المختفى عند الباب ، ويقول ان له قدرة عجيبة في التنقل
من مكان الى آخر مختفيا عن الانظار ، والمؤمنون يسبحون
اثناء مرورهم بالباب ، بينما يدفع الفضول غيرهم الى
النظر خلف الباب لعلهم يرونه ، ويستنكر ستانلى لين بول
ما يقوم به القاهريون من دق للمسامير ، والتماس العلاج
عند البوابة ، ويبدو ان من كان يرتبط بالبوابة يصبح
مقدسا ، في احداث سنة ١١١٥ هـ ، يذكر الجبرتي
موت الشيخ المجذوب احمد أبو شوشة خفير باب زويلة
وكانت كراماته ظاهرة ، وكان يضع في فمه مائة ابرة ،
ولا تعوقه عن الاكل ، والشرب ، والكلام .

وتذكر مراجع تاريخية أخرى ان سبب تسمية البوابة
بالتولى كان لوجود متولى حسبة القاهرة على مقربة من
المكان ، ولكنى أرجح السبب الاول الخاص باقامة القطب

(١) سيرة القاهرة - ستانلى لين بول - ص ٢٤ .

المتولى ، خاصة واننى سمعت الكثير من روايات أهالى المنطقة ومعتقداتهم فى البوابة حتى يومنا هذا .

لقد احتلت هذه البوابة موقعا فى الادب المصرى ، فثمة رواية كاملة تدور حولها ، كتبها محمد سعيد العريان ، وتجرى أحداثها خلال السنوات الاخيرة للسلطنة المملوكية ، المصرية ، قبل زوالها على أيدى العثمانيين ، وفى ألف ليلة وليلة نجد باب زويلة مسرحا لاحدى حوادث النشل ، وتدور « السكرية » أحد أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة فى حارة تقع ملاصقة لبوابة زويلة .

وحتى الآن لا تزال البوابة العتيقة ، تقوم فى وسط البيوت التى تزاحمت حولها ، وكادت تخفى معالمها ، ومادية بأحجارها ، قانية بتاريخها ، يلفها غموض وإبهام لكثرة ما نسج حولها من أساطير ، لكن أبرز ما يتعلق بها ، ان الآلاف لاقوا حتفهم هنا فوقها ، بعضهم من أفراد الشعب المصرى المغلوب على أمره . وآخرون ارتكبوا جرائم قد تكون صغيرة أو كبيرة ، وأمراء متمردون ، وأسرى انتهت حياتهم فى ذلك المكان ، وسلطان واحد ، شنق وهو يدافع عن آخر ما تبقى فى سلطنة مصر المستقلة ..

مجائس السلطان الغورى

.. نحن الآن فى القرن العاشر الهجرى .. السادس عشر الميلادى .

على مهل ينزل الليل فوق القاهرة أبواب الحارات أغلقت وتجمع خلفها السكان يتسامرون . بعض المقاهى لا تزال ساهرة مضاءة بنور القناديل أما شارع الصليبة وهو الشارع الرئيسى فى القاهرة ذلك الزمان . فالدكاكين لا تزال مفتوحة ، لم تغلق أبوابها بعد ، دكاكين المشبك والحلوى والاطعمة المختلفة ، والحرفيون الذين يستكملون أعمالهم التى لم يتسع لها النهار . بين الحين والحين يعبر الطريق مملوك يركب جوادا ، أو كوكبة من حرس السلطان الخاص . لا يتوقفون انما يتجهون الى ميدان الرميلة ، حيث يصعدون الى القلعة بينما يعلو صوت طبل وأبواق نحاسية أحد الامراء يدق الطبل أمام داره ، ويجب أن نعرف انه كلما علا صوت الطبل وكثر ، دل هذا على مكانة ومقدار الامير .

عموما .. واضح ان الجو وديع . مستقر لم تحدث اليوم فتن بين الامراء ، لم تقع مشاجرات ، فى الاسواق ،

القاهرة آمنة ، انها احدى الليالى الهادئة التى تخللت
حكم السلطان الغورى ، اذن ، لنمض عبر الطرقات الى
ميدان الرميلى « القلمسة حاليا » ، نصعد الى البلاط
السلطانى ، فى الطريق الى القلعة نلمح القاهرة فى
الغروب ، ان القاهرة تبدو فاتنة من فوق هذا المرتفع ،
ومصدر الفتنة كثرة المآذن الرشيقة ، كل منها يتكون
من ثلاثة أدوار أو أربعة من الشرفات ، وتبدو المآذن
وكانها مصفورة بالخضرة الجميلة التى تتحلى بها
أشجار النخيل الكبيرة التى تنمو فى حدائق المدينة ، وهذا
جميعه يخلق جوا من التناسق الرائع .

انا الآن نتجه الى قلب قلعة السلطان التى تبلغ فى
اتساعها مساحة مدينة (أورليان) نمر بساحة بها نحو
خمسمائة مملوك فى تشكيل عسكرى ، ثيابهم طويلة
بيضاء ، قبعاتهم مستديرة خضراء وسوداء ، ثم نمر
بساحة أخرى بها نحو خمسين موسيقيا بآلات مختلفة ،
ونسير فى عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من
المماليك ، يواجه كل منها الآخر حاملين فى أيديهم
الرماح .

ندخل الآن الى قاعة « الدهيشة » ، حيث تقام
السهرات السلطانية ، بريق الفضة والذهب يكاد يأخذ
أبصارنا الارض كلها مغطاة بالسجاد الثمين ، هنا لابد
أن ننحنى ، السلطان الغورى يجلس فوق مرتفع مغطى
بالسجاد الحريرى ، وأمامه على الارض سجادة لا تقل
مساحتها عن عشرين قدما مربعة ، ملابسه من الحرير
الاصفر ، وعلى رأسه عمامة مصنوعة من نسيج رفيع

من الهند ومشكلة على هيئة ست قمم ، اثنتان الى الامام
واثنتان الى اليمين ، واثنتان الى الشمال الحاضرون
الليلة كبار العلماء والادباء فى السلطنة ، الشيخ حسين
جلبى ، والشيخ شمس الدين السـماديسى ، والشيخ
حسين بن محمد الحسينى ، وهو الذى ألف كتابا قيما
بعد أن جمع فيه ما دار فى هذه السهرات .

قبل أن تبدأ الجلسة ، نطيل النظر الى السلطان
الاشرف قنصوه الفورى ، انه طويل القامة ، غليظ
الجسد ، ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه
جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، لا يظهر الشيب
بلحيته الا قليلا ، واضح من ثيابه انه يميل الى الابهة
فى اصابعه خواتم الياقوت الاحمر ، والفيروز والزمرد ،
والماس ، نعرف انه مغرم بشم الرائحة الطيبة ، واضح
هذا من تلك الرائحة الناعمة الجميلة التى تملأ المكان ،
وهنا لندع ابن اياس ، المؤرخ المصرى العظيم ، وشاهد
العصر ، يقدم لنا وصفا لمزايا السلطان الفورى .

يقول ابن اياس :

« كان الفورى رضى الخلق ، يملك نفسه عند الغضب ،
وكان له اعتقاد زائد فى الصالحين والفقراء ، وكان
ماسك اللسان عن السب فى شدة غضبه ، وكان يفهم
الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وله نظم باللفة
التركية ، وكان قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى
مجلسه ، غير كثيف الطبع فى ذاته ، وكان عنده لين
جانب ورياضة بخلاف طبع الاتراك ، ولم يكن عنده شمم
ولا تكبر نفس » .

وبالتأكيد ، هذه صفات تدل على رقة الطبع ، وحب الحياة ، ويمكننا الاطمئنان جدا الى وصف مؤرخنا ابن اياس ، ويؤكد هذا ان جميع الحوادث فى تاريخ السلطان الفورى تجسد وصف ابن اياس ، بالاضافة الى جراءة مؤلفنا التى كانت لا تدعه يجمال السلطان فعندما كان يأتى عملا فيه ظلم للخلق من جانب الفورى ، كان ابن اياس ينقده بجراءة تدعو للاعجاب ، ان السلطان الفورى الذى يتصدر الآن قاعة الدهيشة ، لا يدير ملك مصر وحدها ، انما الاقطار التى تتبعها ايضا ، اى الشام ، وبلاد المغرب ، وبعض الجزيرة الفراتية ، وبلاد المواسم وهى الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى ، وفى عهده كانت الاساطيل المصرية التى وصلت الى سواحل الهند تتصدى للبرتغاليين الذين نجحوا فى الوصول الى المحيط الهندى عن الطريق الجديد الذى اكتشفه فاسكودى جاما عبر رأس الرجاء الصالح ، وكان بعض أمراء الهند يستنجدون على الفرنج فيرسل الاساطيل والجنود فى الحين بعد الحين ، بالاضافة الى هذا كان السلطان الفورى يواجه الدولة العثمانية الوليدة ، التى دأبت على التحرش بحسود مصر .

كانت الفترة تنبىء بوقوع احداث جسام ، وبالتأكيد فان هذه الامور كلها تشغل بال السلطان الفورى ، تضج بها المكاتبات اليومية ، والرسائل الى الولاة ، وامور الجيش ، لهذا لا بأس من عقد هذه السهرات ، لتخفيف الواقع الصلب ..

سهرات السلطان عديدة ، والمسائل التى تناقش فيها متنوعة ، لهذا آثرنا إعادة صياغة المسائل التى طرحت فى هذه السهرات ، فى ثلاث سهرات ، خصصنا لكل منها موضوعا شبه موحد ، ودليلنا ومرشدنا الى مضمونها هو الشريف حسين بن محمد الحسينى ، الذى واظب على حضور السهرات ، وتدوين ما طرح بها ، وسجل هذا فى كتاب أسماه «نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الاسرار القرآنية» ، والكتاب الثانى اسمه «الكوكب الدرى فى مسائل الفورى» .

لم يتبق الكثير على بدء السهرة الاولى ، والتى خصصناها للالغاز التى طرحت ..

السهرة الاولى :

والشيخ عبد الرازق ، هو الذى أم المصلين الليلة فى صلاة العشاء ، يبدأ المجلس بطرحه لفزا صيغ شعرا ..

قال الشيخ عبد الرازق :

الا فأخبرونى أى شىء رأيتـ
من الطير فى أرقى الاعاجم والعرب
فيؤكل مطبوخا لذيذا وتـسـارة
فيؤكل مشويا اذا اشتد فى اللهب
وليس له ايسـد ، وليس له فم
وليس له رجيل وليس له ذنب
وليس له مخ وليس له دم
وليس له عظم وليس له زغب

وهنا قال السلطان : هو البيض ..

وقبل الاسترسال في السهرة ، يحق لنا أن نبدي ملاحظة ، فكما سبق القول اعتمادنا الاول والاخير هنا على الكتابين السابق ذكرهما ، ولكن يبدو ان كلا المؤلفين وكلاهما شيخ جليل ، قد جاملا السلطان أكثر من اللازم ، فالسلطان هو الذى يحل الالغاز كلها ، وهو الذى له القول الفصل في المسائل الفقهية ، ورأيه هو النافذ . ولكن ماذا نملك ، لا نستطيع الا العودة لنسجل ما أعقب حل اللفز الخاص بالبيض ..

قال أحد شيوخ الحاضرين :

هناك حكاية مناسبة لهذا اللفز ، اذا اجتمع جماعة من الشعراء في خدمة سيف الدولة وقصدوا ايلاء المتنبي ، فقالوا اننا نبيض في هذا المجلس ، وكان مع كل واحد منهم بيضة مخفية ، فلما جاء دور المتنبي صاح صيحة الديك ، فقال السلطان : ما هذا ؟ قال : لابد لهذه الدجاجات من ديك . وهنا طرح اللفز الآتى :

وميت يقبر طعمه عند رأسه

اذا ذاق من ذاك الطعم تكلما

يقوم ويمشى ناطقاً بفصاحة

ويأوى الى القبر الذى كان قيما

واطرق السلطان لحظة ثم قال : (هو القلم) . ثم

تتابعت الالغاز :

خليلان ممنوعان من كل لذة

يبيطان طول الدهر مجتمعان

اذا امسيا كانا على الناس حارسا

وعند طلوع الفجر يفترقان ؟؟

قال السلطان : هو الباب . .

اللفز الرابع :

وذى سفر لا يحب المقام
ولا يسقام السير فى كل حال
يبعد الليالى فى مره
وتضنيه فى مرهن الليالى

قال : هو القمر .

اللفز الخامس :

وأكلة بغير فسم وبطن
لها الاشجار والحيوان قسوت
إذا اطعمتها نعشت وعاشت
وان أسقيتها ماء تمسوت

قال : هو النار .

وهنا قال أحد مشايخ الحاضرين حكاية تناسب المقام:
قيل لكسرى أنو شروان ، ان فى عسكر سلطان
السودان والحبش أربعمئة ألف رجل فقال أنو شروان
لهم ، لا تخافوا لان النار القليلة تفنى الحطب الكثير ،
وقيل أيضا للاسكندر . . ان فى عسكر دارا ملك الفرس
ثلاثمئة ألف رجل ، فقال الاسكندر الاكبر بكثرة الغنم
لا تخوفوا القصاب .

وهنا أصفى السلطان ليستمع الى اللفز السادس :

أتى بلفس ثلاثى يعجزنى
وظن ذلك بحرا لست أسلكه
وقال فسرہ شمس الدين قلت لا
مولای لفزك ليس الشمس تدركه

قال : هو القمر .

وهنا دخل الشيخ ابن النحاس ، بعد أن حيا السلطان وجلس ، قال :

« كنت في خدمة قاضي كاتب السر ، فقال لي : تعال الى تفرج على كسر النيل ، وأنا ما رضيت ، لان مولانا السلطان هو البحر الكبير ، وبحر النيل في هذه الليلة وهذا البحر ، بحر مولانا السلطان لا نرى منه الا جبر الخواطر » .

وهنا الحضور بعضهم فالىلة تم كسر السد المقام عند قم الخليج ، لقد أوفى النيل ، ثم ألقى اللفز السابع :

ما اسم شيء حسن ————— كله
تلقه عند الناس مخزوننا
نراه مع ————— دودا فان زدته
واوا ونونا صار « موزونا »

قال : هو الموز .

اللفز الثامن :

لي جمع أصحاب عشقهم وأهواهم
ولا أشتهى قط أنظرهم ولا أدراهم
ما طاب لي عيش في الدنيا برؤياهم
قال السلطان : هو الاسنان .

السهرة الثانية

نحن الآن في قاعة الاشرفية ، احدى القاعات الرائعة في قلعة الجبل ، الحضور لم يتغيروا ، الخليفة والعلماء وكبار رجال السلطنة ، وأمام الصلاة كان الليلة الشيخ كمال الدين البرقوقي ، السلطان يتصدر القاعة،

مملوكان يقفان فوق رأسه ، يحملان رمحين من الذهب الخالص ، بين الحين والحين تهب نسيمات خفيفة ؛ الليلة هواؤها عليل ، لا عجب ، فالوقت خريف ، وسهرة الليلة تعد بالكثير فما سيدور الآن ، يتناول النوارد والحكايات والعظات والعبر .

بعد أن قرأ الشيخ البرقوقي البسطة ، قال :

« والله ما فى الدنيا أحسن من الادب ، الادب جوهرة والعقل معدنها ، كان السلطان محمود يلعب الشطرنج مع صاحبه اياس ، كان يقول له : يا سيدى العب . يا أمير العب ، فقال اياس ، يا مولانا السلطان ما أنا مستحق لهذا التعظيم ، فقال له السلطان ، قصدى مداومة لسانى على الكلام المليح ، واجتناب الكلام القبيح .

وهنا أبدى الحضور استحسانهم ، وقال الشيخ السماديسى ..

« حدث أن ملك الهند فقد سمعه وصار أصم ، فاشتد حزنه لما دخل عليه أهل مملكته لتعزيته فى سمعه ، قال حزننى ليس بسبب أصابتى ، بل بسبب انى ما أقدر على سماع استغاثة المظلوم ، ولكن اذا ما ذهب سمعى لم يذهب بصرى ، لهذا امرت ان يلبس كل مظلوم ثوبا أحمر حتى اذا رأيته عرفت انه مظلوم فأقربه منى وأنصفه ..

وهنا قال السلطان الفورى ..

« قال النبى صلى الله عليه وسلم ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .. فى هذه اللحظة وصل

الشيخ سعيد ، أحد ندماء السلطان ، وكان مشهورا بخفة دمه ، واطلاعه الواسع على النوادر ، والحكايات ، وبعد أن قبل الأرض بين يدي السلطان جلس مسلما على أصحابه ، ثم قال ..

« سمعت الآن حكاية ظريفة أرى إلا أحرمتكم منها ..

نظروا إليه ضاحكين ، استمر الشيخ سعيد ..

« ركب أحد أثرياء الهند مع الوزراء فلما وصلوا إلى زريبة البقر ، وجدوا البقر يصيح ، فسألوا الثرى وكان اسمه الخواجه محمود ، ما يقول البقر !!

فقال ، البقر يقول لى ، أخرج من بين الحمير وتعال عندنا ..

وضج المجلس بالضحك ، اهتز كرش السلطان الفورى ، وبعد أن هدا قال ..

« ذكرنى هذا بحادثة جرت مع السلطان قلاوون ، إذ ادعت جماعة محبته حبا شديدا ، فقال لهم ، ان كنتم تحبوننى أرموا أرواحكم من القصر ، فقالوا ، باسم الله ، وجروا من أول سطوح القصر إلى نهاية أطراف القصر ، ووقفوا قائلين : « يا مولانا السلطان محبتنا لك إلى هذا الوضع ، فمن يزيد علينا قدما فالمحبة له .. » .

وعلت ضحكات المشايخ والأمراء ، وصفق بعضهم طربا واستحسنانا ، ومن بين الحضور علا صوت الشيخ السماديسى ..

« قرأت ان بعضهم سأل أفلاطون ، ما علة ملوحة البحر !!

فقال لهم : بينوا لى فائدة العلم بهذا حتى أبين لكم علته ..

وارتسمت على الوجوه ابتسامات خفيفة ، وهنا قال
الشيخ سعيد ..

« تعرفون ابن عثمان طبعاً ، حدث إنه أمر ناصر الدين
— وناصر الدين يماثل جحا عند العرب — أن يشوى له
أوزاً ، فشوى وأكل منه رجلاً ، فسأل السلطان عن رجل
الأوز ، فقال ما يكون للأوز غير رجل واحدة ، فسكت
السلطان ، وبعد قليل ركب السلطان ومعه الشيخ ناصر
الدين وبالصدفة قابلوا أوزاً يقف على رجل واحدة ،
فقال ناصر الدين للسلطان أنظر كل واحدة منها برجل
واحدة ، فدق السلطان الطبل ، فمدوا أرجلهم ، قال
السلطان للشيخ ناصر الدين ، لقد أكلت رجل الوز
وكذبت ، بسرعة قال ناصر الدين ، يا مولانا انت لم تدق
طبلك ساعتها حتى يمد الوز المشوى رجله الملتئم ..

وهنا قال السلطان ضاحكاً ..

« والله تذكرنى يا شيخ سعيد بقول أحد الحكماء ،
الهزل فى الكلام كالمالح فى الطعام .. وعلا صوت الشيخ
البرقوقي بنادرة ..

« قرر السلطان محمود بقاء اسمه الى يوم القيامة ،
ف قيل له ، ابن العمارات العالية ، فقال ، تخرب بعد
ثلاثمائة أو أربعمئة سنة ، استقر رايه على تأليف الكتب
باسمه . فأمر شاعره الفردوسى بنظم ملحمة طويلة اسمها
« الشاه نامه » ووعد الفردوسى بقطعة ذهب ازاء كل
كل بيت ، فلما أتم الفردوسى الملحمة ، قال الوزير
للسلطان محمود ، يكفيه قطعة فضة فى كل بيت ، وكان
عدد الابيات ستين ألفاً ، فأرسل السلطان ستين ألف قطعة

فضة الى الفردوسى ، وكان لحظتها فى الحمام ، فأعطى صاحب الحمام عشرين ألفا كأجرة له ، وشرب خمرا بعشرين ألفا ، وأعطى الباقي بقشيشا لمن جاء بها ، فلما سمع السلطان بهذا ، أمر بقتله ، واختفى الفردوسى ، وأنشد يهجو السلطان ، وأضاف الهجاء الى ملحمة (الشاه نامه) ، وعندما أطلع السلطان على هجاء الفردوسى اغتاظ جدا وأمر بقتل الوزير الذى أشعار اليه بإبدال الذهب بالفضة ، وأرسل ستين ألف قطعة ذهبية الى مدينة الفردوسى ، فلما وصلت الفلوس الى باب المدينة كان تابوت الفردوسى يخرج من الباب الآخر ، فعرضوا الذهب على ابنته لكنها رفضت ، فأمر السلطان بصرف الفلوس على العمارة لأجل روح الفردوسى .. » .

قال السلطان الفورى متمهلا :

أذكر هنا قول على بن أبى طالب رضى الله عنه ، شرف الشخص بالعلم والادب ، لا بالأصل والنسب ..

مصمم القوم شفاهم ، وسادت لحظة هدوء ، قطعها الشيخ سعيد بضحكة عالية ، قال بعدها ..

سمعت انه كان هناك رجل طويل الانف ، مدح نفسه عند جماعة بأنه رجل متحمل للمكاره ، قيل له لولا صبرك على المكاره لما قدرت أن تحمل هذا الانف ستين سنة ..

هنا زعق الامير يشيبك زعقة هائلة ، صاح .. « احترم نفسك يا شيخ سعيد .. اكتسى وجه الشيخ لونا أصفر ، ولاحظ الحضور أن أنف الامير كبير حقا ، وابتسم بعضهم ابتسامات خفيفة ، حتى السلطان الفورى

نفسه ، نظر الشيخ مدعورا الى السلطان مستجيبرا به ،
أشار السلطان .. « اهدأ يا شبك .. الشيخ سعيد
لا يقصد ..

نظر الامير الى السلطان ، قال والفضب فى صوته ..
« والله لولا وجودك يا مولانا » ..

هنا علا صوت الشيخ برقوى ..

« اهدأوا يا جماعة ، اذكر قول سيد العرب والعجم ،
صلى الله عليه وسلم ، سيد الكلام العربية ، وسيد كلام
العربية القرآن ، وسيد الجبال طور سيناء ، وسيد البلدان
مكة ، وسيد السودان لقمان ، وسيد فارس سلمان ،
وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال ، وسيد القوم
خادمهم ..

قال السلطان الفورى ، بصوت عميق ..

قرأت فى اخبار السلطان محمود : انه خرج ليلا فى
زى فقير ، فرأى عجوزا مهمومة فقال : ما سبب همك ؟
قالت يجىء جندى ويرنى بينتى كل ليلة ، قال :
ما لباسه وما زيه ؟ قالت كذا وكذا ، ومضى السلطان
وجمع الاخبار حول حقيقة هذا الشخص ، وفى الليلة
التالية خرج السلطان متخفيا أيضا ، لكنه يحمل سيفه ،
جاء الى بيت العجوز ، قال يا عجوز اطفئى السراج ،
وقتل الجندى الذى دخل قاصدا الاعتداء على ابنتها ،
ثم قال السلطان ، هل عرفت من هو ؟ قالت لا .. لم
أعرفه ، قال السلطان ، هذا ابنى ، وأنا السلطان محمود ،
وقد أمرتك باطفاء السراج حتى لا أنظر وجهه فأرحمه ..
أبدى الحاضرون استحسانا ، وقال الشيخ الدميرى ..

اصلاح الرعاية احسن من كثرة الجنود والمملكة ..
وهنا انفض المجلس ، واذن السلطان الغورى للحضور
بالانصراف ، على أن تكون السهرة التالية مخصصة
للمسائل العلمية ، والفقهية ، وعلى الطريق النازل الى
المدينة ، مشى العلماء والامراء الى اصطبل الخيول
السلطانية ليركبوا الى بيوتهم ، بينما النسيم يهفو من
ناحية النيل فوق المدينة النائمة فى دعة .

السهرة الثالثة :

بدأ السلطان الغورى بتوجيه السـؤال الاول الى
الحضور :

— ما الحكمة فى الكسوف والخسوف ؟

قال الشيخ كمال الدين :

— هما آيتان من آيات الله ، كما ورد فى السنة .

اجاب الشيخ السماديسى اجابة ثانية ، وكانت له معرفة
بالعلوم ..

— سبب الخسوف حيلولة الارض بينه وبين الشمس ،
والقمر مظلم ، فيبقى القمر بلونه الاصلى اسود .

قال الامير طغلق ، المستول عن تشييد المباني
السلطانية :

— هذا مخالف لقوله تعالى (وهو الذى جعل الشمس
ضياءا والقمر نورا) ..

وهنا سأل السلطان الغورى ..

— ما الفرق بين الضوء والنور ..

قال الشيخ السماديسى ..

— الضوء هو النور الفالب القاهر المحرق بخلاف
النور ، فانه يطلق على غير المحسوس أيضا .. كنور
القلب ، ونور الايمان ، بعكس الضياء ..
سكت السلطان الفورى لحظة ، اطلال النظر الى سقف
القاعة المنقوش بنقوش دقيقة ، أغصان متشابكة ، مطلية
بالذهب ، مطعمة بالصدف والفيروز ، فوق القاعة
والقلعة والمدينة تعلو السماء الليلية مرصعة بالنجوم ..
سأل السلطان ..

— ما سبب خضرة لون السماء ؟
قال الامير يشبك :

— انما جعلها خضراء لتكون مناسبة للبصر ، لان الاطباء
يأمرون بادمان النظر الى الخضرة ليكون فيه قوة للبصر ،
وقيل خضرتها من جبال قاف ، لانها من زمرد أخضر ،
وقيل من خضرة اشجار الجبل المذكور ..

بعد لحظات ، سأل الشيخ البرقوقي .. !

— قال أحد السلاطين القدماء ، معنى العيد في اللغة
هو السرور ، فسرور المسلمين لذهاب رمضان محير ، وهو
الشهر الذى تغلق فيه ابواب جهنم ، وتفتح ابواب
الجنة ؟؟ .

فالقياص الا يفرح المؤمن بذهاب مثل هذا الشهر ؟؟
وهذا اجاب السلطان الفورى ..

— فرح المؤمنون لاجل انهم ادوا هذه الفريضة آداء كاملا
ووصلوا الى درجة الصائمين الكاملين ، بسبب انتهاء شهر
رمضان ..

سأل الشيخ السماديسى :

— رجل مكره على سب النبی فالاولى له ان يرتد
باللسان او يصبر على الضرب حتى الموت !!

قال السلطان الفورى :

— الاولى الصبر ، لو وقعت انا ، والعيساذ بالله ،
مجبورا ، مكرها على سب النبى ، اختار الموت ولا اسب
النبى ..

قال الامير يشبك :

— قال تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، ظاهر
الآية يدل على أن المختار السب !!
قال السلطان ..

— المراد من الآية الكريمة الرخصة فى الجملة لا أن
السب واجب عليه ، ولكن المفروض عدم السب نهائيا ،
والصبر على الضرب كما ذكره النووى فى الروضة ..
قال الشيخ سعيد بصوت عال ..

— اذا دخل اربعون نفسا على مولانا السلطان ، الذى
دخل أولا أخذ دينارا ، والذى دخل ثانيا أخذ دينارين ..
والذى دخل ثالثا أخذ ثلاثة دنائير ، الى الشخص الاربعين
فقد أخذ اربعين دينارا ، اذن كم يكون المجموع .. ؟
قال السلطان ..

— المجموع سبعمائة وثمانون ..

وعاد الشيخ سعيد يسأل ..

— اذا وقع من يد شخص لؤلؤة فابتلعها نعامة ، فما
الحكم فى .. ؟

قال السلطان الفورى :

— اذا كانت قيمة اللؤلؤة أكثر تدبج النعامة ، وان
كانت قيمة النعامة أكثر من اللؤلؤة تترك .
وهنا سأل السلطان ..

— من بنى الاهرامات ؟

قال الامير يشبك ..

— ذكر الشيخ جلال الدين السيوطى ان الاهرامات بنيت قبل الطوفان ، لانها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس ، وقيل بناها شداد بن عاد ، وقيل سوريد بن صلهوق ، وكان ملكا لمصر ، وقد رأى حلمسا فى منامه ملخصه ان الارض انقلبت بأهلها وفنى كل شيء ، وعندما استيقظ جمع كهنته فتنبأوا بالطوفان ، فأمر هندثد ببناء الاهرامات وملاها بجميع ما كتبه الحكماء فى العلوم ووضع فيها أصناف الأسلحة ، والادوية والعقاقير ، وعين لكل هرم حارسا حتى لا يقترب منها أحد قط ، وقيل ان الاهرام عليها كتابة معناها « انا سوريد الملك بنيت الاهرام فى ست سنين ، فمن أتى بعدى وزعم انه مثلى فليهدمها فى ستين سنة ، والهدم أيسر من البناء .. » .

وعند هذا الحد من حديث الامير يشبك عن الاهرامات ، نفارق السهرة عائدين الى المدينة ، فالسهرات تطول ، ولكن الموضوعات لا تخرج عما أوضحناه سابقا ، وأثناء نزولنا الى القاهرة عائدين من قلعة الجبل يتردد فى اذهاننا حديث الامير يشبك ، بالطبع لم يكن التاريخ الفرعونى معروفا لاهالى العصر ، لكن كانت الآثار القائمة فى الوادى ، تحير الاهالى برموزها ورسومها ، من هنا صاغ الشعب تاريخا اسطوريا لمصر ، يمتزج فيه الخيال باللاومى الجماعى للشعب المصرى والذى يختزن احداث التاريخ القديم ولكن فى صورة أسطورية لا علاقة لها بالواقع والتاريخ الحقيقى ..

لا تفارقنا هيئة السلطان الفورى ونحن نفارق عصره ،
هذه الفترة التى تثير الخيال الانسانى ، بكل ما حوته
من مواكب سسلطانية ورياضة الممالك والعبهم فى
الساحات ، واحتفالات الاهالى ، والمواسم ، ولهو الشعب
وايقاع حياته اليومية ، وكدحه وكده من أجل صناعة
الحضارة .

كانت فترة حكم السلطان الفورى آخر سنى هذا العصر
الزاهى البراق ، عصر السلطة المملوكية ولنذكر فى نهاية
هذه السهرات ، ان السلطان الفورى ، خرج مدافعا
عن ملكه ، وعن مصر ، فى جيشه المملوكى ، متصديا
للعثمانيين فى مرج دابق ، وانه حارب ، ولكن الخيانة
هزمته ، فسقط شهيدا ، ولم يعثر على جثته ، ولم يدفن
حتى الآن فى قبر ، هذه القبة الشهيرة التى تقسوم
فى مدخل شارع الفورية ، والتى أنفق عليها وبنائها ليدفن
فيها ، ولكنه مات شهيدا غريبا فى سهول حلب ..

النشو

يفصلنا عن شرف الدين عبد الوهاب النشو سبعة قرون هجرية ، مات الرجل منذ زمن بعيد ، ولكنه لا زال يسمى بيننا هذا ما تقوله سيرته وأفعاله ، وما تقوله سيرة وأفعال الكثيرين ممن يعيشون حولنا الآن .

والنشو لم يكن بطلا من أبطال التاريخ ، إنما كان رجلا عاديا ، بدأ حياته بخدمة الامراء في زمن السلطان الناصر ابن محمد بن قلاوون . . كان مستخدما عند ابن هلال الدولة شاد الدواوين ، وكان يتردد عليه كثيرا ويبالغ في خدمته ، واستخدمه ابن هلال الدولة في الاشغال ، وأثناء ذلك تزوج الامير انوك ابن السلطان من ابنة الامير بكتمر الساقى ، وبدأ السلطان يفكر في شخص بعينه لخدمة ابنه ، ولا بد أنه فكر في النشو ، كان النشو قد وقف بين يديه أكثر من مرة ، وتحدث اليه ، وعندما كان يتكلم الى السلطان كان يركز كل حواسه ، ومواهبه حرصا على أن يترك أثرا في نفس السلطان ، في صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة هجرية ، التحق النشو بخدمة الامير انوك ، وكان هذا أول صعوده . .

أصبح النشو قريبا من السلطان بحكم موقعه الجديد ،
وصار يتردد كثيراً على القلعة ، يخلو الى السلطان ،
ويحادثه في أمور الدولة ، ويبدى الحرص البالغ على
أموال السلطان ، ومصالحه ، وسير العمل في الدواوين ،
وفي أثناء إبدائه والحرص ، كان يرمى عبارات هنا وهناك
في حديثه في البداية كان يلفظها بحذر ، ثم لاحظ أن
أذن السلطان مصغيتان اليه ، فزاد من الدس والوقيعة ،
وكان مظهره يساعده ، أنه طويل القامة . مليح الوجه ،
حلو التقاطيع ، برىء السمات ، أثر كلامه في نفس
السلطان حتى بات مقتنعا أن النشو بحرصه عليه يمكنه
أن يحصل له مالا كثيرا ، فأصدر مرسوما بأن يتولى النشو
نظارة الخاص ، أى يكون مسئولاً عن أموال السلطان
وممتلكاته ، وهذه وظيفة هامة جدا ، ولكن النشو لم
يهدأ ، ولم يتوقف أخذ يتحدث الى السلطان عن أولاد
موظف كبير اسمه التاج أسحق ، راح يحدثه عن الأموال
التي جمعوها بالباطل ، وكرههم له ، وكان أحد هذين
الولدين قد تولى وظيفته في نفس اليوم الذي عين فيه
النشو ناظرا للخاص ، وهو شرف الدين موسى ، لم يمض
إلا عشرون يوما فقط ، وعمل كلام النشو عمله في
السلطان ، فأصدر مرسوما بعزل شرف الدين موسى من
نظر الجيش ، وأمر بالقبض عليه ، وعلى شقيقه ، ومصادرة
ثروتها ، وكان أسلوب السلطان الناصر قلاوون غريبا في
ضرب موظفيه ، لقد استدعى ابن هلال الدولة ، وأسر
إليه أن يمضى ليحاصر بيوت أولاد التاج أسحق بمجرد
دخول الأمراء البلاط ، وبالفعل دخل الأمراء ، وكبار

موظفى الدولة - وبينهم شرف الدين موسى - الى السلطان ،
عندئذ التفت السلطان الى القضاة وأخذ فى الشئاء على
شرف الدين ، وقال فى آخر كلامه :

« أنا رأيت هذا وعملته كاتبى » .

فى هذه اللحظة بالذات كان الجنود يحيطون بيته ،
ربيت شقيقه ، وعندما خرج من البلاط ، واتجه الى مقر
وظيفته ، كانت العيون تحيطه بالرهبة ، ألم يشن عليه
السلطان علنا ، ولكنه ما أن جلس بديوان الجيش حتى
بلغه ان الحوطة قد وقعت على بيته ، وأن رسل الديوان
على باب الجيش ، وبلغ الخبر أيضا الى أخيه علم الدين ،
وفى العصر صعد ابن هلال الدولة بأوراق الحوطة (كشوف
جرد المحتويات) وهى تشتمل على أشياء كثيرة جدا ،
منها على سبيل المثال ، أربعمئة سروال لزوجة علم الدين ،
أمر السلطان بتسليم الاخسوين الى ابن هلال الدولة
للتحقيق معهما ، والتوصل الى الثروات المخفية ،
وأحضرت آلات التعذيب ، من أسواط ، ومعايير وسئل
موسى عن صندوق ذكر انه أخذه من تركة أبيه ، فيه من
الجواهر والذهب ما يبلغ مائة ألف دينار ، وكان النشو
قد أفضى الى السلطان بوجود هذا الصندوق ، فأنكر
ذلك ، وأقسم الايمان المفلظة ، فرق له ابن هلال الدولة
ولم يعذبه ، وهنا استنكر النشو ذلك ، وأخذ على ابن
هلال الدولة هذه الرقة ، مع أن الرجل هو أول من
استخدمه ، وهو ولى نعمته ، وأضطر ابن هلال الدولة
الى التضيق على موسى ، لينتزع منه كل ما لديه ، ان
النشو الآن لا يقيم وزنا لابن هلال الدولة ، انه يتحدث الى

السلطان رأسا ، والكلام يخرج من فمه الى اذنى السلطان رأسا ، كما انه لم يكن يدع فرصة الا ويظهر فيها اخلاصه وولاءه عند عودة السلطان من الحج ، تولى النشو الاشراف على مظاهر الاحتفال ، خرج الناس للقضاء الناصر ، وغلقت الدكاكين والاسواق ، وجمع النشو من الامراء الابطسة ، والمنسوجات الحريرية الثمينة المشفولة بالذهب ، وبسطها فوق الارض امام القلعة ، وحتى مقعد السلطان ، وتمضى الايام ، ونفذ النشو يقوى ، ويتزايد ، يقول المقرئ فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك :

« وفى هذا الشهر كثرت مصادرات النشو للناس ، فأقام من شهد على التاج اسحق انه تسلم من المسكين الترجمان صندوقا فيه ذهب وزمرد وجوهر مثنى ، فرسم لابن الحسنى بعقوبة موسى بن التاج اسحق حتى يحضر الصندوق ، وطلب النشو ولاية الاعمال والزمهم بحمل المال ، وبعث اخاه لكشف الدوايب بالصعيد وتتبع مواشى ابن التاج اسحق ، فقدم قنغلى والى البهنسا وقشتمر والى الفسرية وفخر الدين اياس متولى المنوفية ، وعدة من المباشرين فتسلمهم ابن هلال الدولة ليستخلص منهم الاموال .

كان النشو اذا اضطهد شخصا فانه يتتبعه حتى يدمره تماما ، ويتتبع أى انسان يمت اليه . . هكذا فعل مع موسى بن التاج اسحق .

يستعين بالاشخاص ذوى السمعة السيئة والاشرار

بدأ النشو يعتمد على اقاربه ، وأرسل أخاه واسمه المخلص الى الصعيد فى مهمة ، عاد منها ليقدّم اليه تقريراً عن ثروات مباحرى الوجه القبلى ، وطلع النشو الى السلطان ، راح يفريه بهم جميعاً ، ويتحدث عن اتلافهم مال السلطان ، وهنا صدر مرسوم بالحوطة على جميع مباحرى الوجه القبلى ، واعتقالهم ، وطلب النشو تجار القاهرة ومصر ، وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش ، بثلاثة أمثال قيمتها ، كان يبيع بضائع السلطان بأسعار مرتفعة جداً ، وهكذا يحصل له على أموال طائلة ، فى الوقت الذى بدأ هو بتكوين ثروته ولكن فى حذر شديد ، وكان السلطان الناصر يصدر أحياناً بعض المراسيم التى تتسم بالخير ، وهكذا أصدر مرسوماً بمسامحة الأمراء فى الأموال المدينين بها للديوان ، ولكن النشو لم ينفذ هذا المرسوم ، وألزم مباحرى الأمراء بتسديد هذه الأموال ، وركب الى السلطان ، وأوضح له قيمة الأموال التى يمكن أن تضيع نتيجة لهذه المسامحة ، وأن مال السلطان يضيع ويتبدد ، وأن الدواوين تشرق بحجة مسامحة الأمراء ، وتأثر السلطان بما سمعه ، ويمكن النشو من عمل ما يختاره ، والا يسامح أحداً بشيء مما عليه للديوان ، وشق ذلك على بعض الأمراء ، فراجع الأمير قوصون السلطان ، ولكنه لم يجبه الى شيء ، عندئذ كف الأمراء عن السؤال ، وعظم النشو فى أعين الناس .

واستعان النشو بالأشخاص ذوى السمعة السيئة ،
استدعى الشمس بن الأزرق وكان ظلوما غشوما ، فكتب
له أسماء أرباب الاموال من التجار ، وفرض عليهم
قماشاً بثلاثة أمثال قيمته . يقول المقرئى :

« وعمت مضرة النشو الناس جميعا ، وانتهى اليه عدة
من الاشرار ، ونموا على الكافة من أهل الوجه القبلى
والوجه البحرى ، ودلوه على من عنده شئ من الجوارى
المولدات لشغف السلطان بهن ، فحملت اليه عدة منهن
بطلبهن من أربابهن ، وسعوا عنده بأرباب الاموال أيضا ،
فدهى الناس منه بلاء عظيم . »

وبين الحين والآخر ، كان كبار رجال الدولة يفضون
بشكواهم الى السلطان ، ولكنه كان ينهرهم ، ويبدى
الثقة بالنشو ، واذن له فى عمل ما يختاره ، وأن يتصرف
فى أمور الدولة كما يشاء والا يبالى بأحد ، ووعدته بتقوية
يده ، وتمكينه ، ومنع من يعارضه ، بل ان السلطان
استدعى اخوة النشو وأقاربه ، وعينهم عند كبار
الامراء ، فجعل المخلص أخ النشو مباشرا عند الامير
سيف الدين الناق ، واستخدم أخاه رزق الله عند
الامير ملكتمر الحجازى ، واستخدم صهره ولى الدولة
عند الامير أرغون شاه ، وخلع عليهم .

انبسطت يده النشو ، واشتدت وطأته ، واستدار
ليضرب أول شخص أحسن اليه ، وكان بداية صعوده
التفت الى ابن هلال الدولة نفسه .

ابن هلال الدولة يلزم بيته بتدبير من النشو

أخذ النشو فى التدبير على ابن هلال الدولة ، رتب عليه انه أخذ من مال السلطان جملة ، وانه أهمل فى المحافظة على أمور السلطان ، وانه بسببه ضاع مال كثير ، وانتدب لتحقيق ذلك ثلاثة ، أمين الدولة بن قرموط المستوفى ، والشمس بن الأزرق ناظر الجهات ، وشخص ثالث اسمه لؤلؤ الحلبي ، وحدد يوم للمواجهة ، بالطبع رتب النشو كل كبيرة وصغيرة ، انعقد المجلس فى القلعة ، وفى البداية برز قرموط ، وواجه ابن هلال الدولة بأنه أهمل الأمور ، وبرطل « رشا » بالأموال ، ولم يستمع السلطان الى الباقيين ، بل أمر ابن هلال الدولة ان يلزم بيته ، وعين شخصا آخر بدلا منه فى وظيفته ، وأمر بدر الدين لؤلؤ الحلبي باستخلاص الأموال ، قبض على ابن هلال الدولة ، وصودرت أمواله ، وهكذا أجهز النشو على ولى نعمته ، والذي كان وجوده يذكره بأيام الزمن القديم عندما كان موظفا صغيرا فى خدمته .

ثم اختار النشو شخصا قاسيا ، غتيتا ، هو ايدكين الادكش لولاية القاهرة ، وبدأ نشاطه بمهاجمة البيوت ، ومصادرة الأموال ، وصار يتنكر فى اللبل ويمشى فى ازقة القاهرة ، فاذا سمع صوت غناء أو شم رائحة خمر هاجم المكان وأخذ من أهله أموالا طائلة طبقا لآحوالهم ، وكان النشو يوجهه ، وينفذ أغراضه من خلاله ، ولما تزايد أمر ايدكين ، طلع الأمير قوصون وشكاه الى السلطان ، وهنا

تغير السلطان على قوصون وقال له :

« أنتم كلما وليت أحدا ينفعني أردتم اخراجه ، ولو انه من جهتكم لشكرتم منه كل وقت » .

وفى الحال أصدر مرسوما بأن يتولى ايدكين ولاية مصر ، الى جانب القاهرة ، ولم يجمع الولايتين أحد قبله ، وعظم أمر ايدكين ، فى أحد الايام خرج من القاهرة الى قرية النخيلة بالوجه البحرى ، وكانت متنزها للناس ، هاجمها وقت الغروب فما قبض على أحد الا وسلبه ثيابه وتركه عاريا ، عرى البلدة كلها عن بكرة أبيها ، وجمع أموالا كثيرة .

غير ان ايدكين لم يستمر طويلا فى منصبه ، ففى أول سنة خمس وثلاثين وسبعمائة هجرية عزل ، ونفى الى الشام ، وكان السبب سعاية عدد من كبار الامراء ضده عند السلطان .

وفى نفس السنة لاحظ النشو أن مستوفى الدولة أمين الدين قرموط يكثّر من الاجتماع بالسلطان ، فخاف عاقبة ذلك ، مع انه هو الذى قدمه الى السلطان ، وبدأ يتكلم فى حقه ، وقال انه جمع كثيرا من مال السلطان لنفسه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة معه ، وعوقب قرموط وضرب بالمقارع سعيا لاستخلاص أربعين ألف دينار منه ، ولكنه صمد للضرب ، عندئذ قيل انه جلد ، وانه لن يعترف الا اذا ضرب ابنه امامه ، وجاءوا بولده وبدأوا بضربه فلما اشتد البلاء بقرموط ضرب نفسه بسكين فى حلقومه محاولا الانتحار ، ولكنهم انتزعوها منه ، واستمر تعذيبه ، وتعذيب ابنه .

في هذه الفترة قدم الامير تنكر ، نائب الشام يوم الاربعاء الحادى عشر من رجب (٧٣٥ هـ) ، وسعى عند السلطان ليفرج عن ابن هلال الدولة ، وساعده الامير قوصون ، وبالفعل استجاب السلطان لهما ، وأفرج عن الرجل ، وكان النشو مسافرا الى الاسكندرية ، وعند عودته فوجيء بالخبر ، وشق عليه الافراج عن ابن هلال الدولة ، وطلع الى السلطان ، وراح يتحدث عن ابن هلال الدولة وخطورته ، ومال السلطان اليه ، فأمر الوالى باحضاره الى القلعة ، وخرج الوالى الى ابن هلال الدولة ، سبه ولعنه ، وأبلغه عن السلطان انه متى اجتمع به أحد شئقه ، فنزل واقام بالقرافة منقطعا عن جميع الناس ، واستمرت سعاية النشو في الناس ، اتهم والى دمياط بأنه خرب أساسا قديما في البحر بين البرجين ، كانت عليه طلسمات تمنع ماء البحر المالح عن ماء النيل ، حتى تلفت الطلسمات وغلب البحر على النيل ، فتلفت بساتين ، كثيرة ، وان الوالى نال من ثمن هذه الحجارة أموالا طائلة ، واعتقل والى دمياط ، وعذب ، واستخرج منه وجمع أموالا كثيرة .

وقبض النشو على امرأة موسى بن التاج ، عاقبها وهى حامل عقوبة شديدة على احضار المال حتى طرحت مافى بطنها ولدا ذكرا .

كان النشو يستخدم شرار الخلق ، وكانت له نساء عجائز يتجسسن فى البيوت الكبيرة ، وحدث ان احدى هؤلاء النسوة أبلغته عن اولاد ابن الجيعان ، وانه يسمى فى نظر الجيش ، والآخر يسمى ليتولى نظر الخاص ،

عندئذ طلب النشو كاتب الاصطبل منهم ، وطلب منه ان يكتب حساب الاصطبل ، فامتنع ، ورد عليه بكلام خشن عندئذ سعى النشو عليه عند السلطان حتى قال له السلطان :

« لم لا تعمل حساب الاصطبل ، وتعطيه الناظر ؟ - يقصد النشو . فقال :

« ياخوند : بدل ان تطلب حساب الصبي والمقاود، اطلب حساب الذهب الذى يدخل الى خزائنك » .

وأغلظ فى حق النشو ، وعندما قابله ، قال له : « ونعمة مولانا السلطان اظهر فى جهتك مائتى ألف دينار » .

وهنا قامت قيامة النشو ، وانفض المجلس على ذلك ، فما زال النشو بأولاد ابن الجيعان حتى سلمهم الى أولو فعاقبهم حتى هلكوا ، وصودرت ثرواتهم ، ولم يكتف النشو بذلك ، بل قبض على اقاربهم ، وصادر أموال عدد من اصحابهم .

مملوك السلطان

فى هذه السنة ٧٣٥ هـ ، كثر شغف السلطان بمملوكه الطنبغا الماردينى شغفا زائدا ، الى درجة انه قرر ان ينشئ له مسجدا يحمل اسمه ، واختار موقعه خارج باب زويلة ، وكان لابد من ازالة عدد من البيوت بعد شرائها ، طلب السلطان النشو وكلفه بتحقيق ذلك ،

عندئذ استدعى النشو أصحاب البيوت ، وابتاعها منهم
بنصف قيمتها ، وتم بناء المسجد والذي لا زال قائما
حتى الآن .

وفى نفس هذه السنة جرت محاولة للتخلص من
النشو عن طريق الوقيعة ، اذ كتبت رقعة الى السلطان
تذكر ظلم النشو ، وتسلط أقاربه على الناس وكثرة
أموالهم ، وعشق صهره لفلان تركي ، استدعى السلطان
النشو ، وبعد أن قرئت عليه القصة قال : أنا أعرف
من كتبها ، وحلف على براءة أقاربه من هذا الشاب ،
وبكى ثم أنصرف .

وحاول عدد من الامراء أن ينبهوا السلطان الى ثروة
النشو الطائلة ، لكنه لم يستجب اليهم ، ولم يصدقهم ،
كان النشو يحرص دائما على أن يبدو أمام السلطان في مظهر
الفقر المعدم حتى تزداد ثقة السلطان به ، ولكي يؤمن
السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفي الدولة
المتصلين بالسلطان ، مبالغ صغيرة من المال بين الحين
والآخر ليوهمهم انه لا يملك شيئا ، أرسل ذات يوم
الى رئيس الاطباء يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفا
نزل عنده وليس لديه ما كرمه به ولكي تجوز حيلته على
السلطان انتهز فرصة وجود كبير الاطباء عنده ذات يوم ،
وشكا فقره للسلطان ، وقد أمن رئيس الاطباء على هذه
الدعوى بحكم ما وقع بينه وبين النشو من قبل وأمعن
النشو في تصرفاته التي لحقت الخاصة والعامة على
السواء ، فتدخل في تجارة السلع الضرورية للحياة من
لحم وفول واقمشة وكان يشتري منها باسم السلطان

كميات كبيرة بأسعار رخيصة ثم يبيعها للناس بأثمان عالية .

وهنا لندع المقرئى يحدثنا من خلال كتابه السلوك عن وقائع النشو .

رسالة تتضمن الوقعة

فى النشو وأقاربه

فى يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الاول ٧٣٦ هـ عزل الامير سيف الدين بفا عن الدوادارية ، واستقر عوضه سيف الدين ، كاجار الماردىنى ، ثم أخرج بفا على امرة عشر بصفد ، فى ليلة الجمعة سادس ربيع الآخر ، وسببه ان بعض تجار قيسارية جهاركس طرح عليه النشو ثيابا بضعفى قيمتها كما هى عادته ، فرفع قصته ، للسلطان على يد بفا ، وأحضر بفا بين يديه فشكا حاله ، فاستدعى السلطان النشو بحضور التاجر وقال له : كم تشكو الناس منك : اسمع ما يقول هذا عنك من طرح القماش عليه بأغلى الاثمان ، فقال « ياخوند : هذا ما يشتكى من أمر القماش لكنه عليه للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقد هرب منى وأنا اتطلبه ، وهذا المبلغ من ارث جارية تزوجها التاجر وهى من جوارى الشهيد الملك الاشرف خليل ، مائت عنده وخلفت نحو مائة ألف دينار وما بين جواهر وغيرها ، فأخذ الجميع ولم يظهر على السلطان شىء » .

ثم التفت النشو الى التاجر وقال له :

« بحياة رأس السلطان : ما كنت متزوجا بفلانة ؟ » .

يعنى الجارية المذكورة ، فقال « نعم » فأمره السلطان أن يسلمه لابن صابر المقدم حتى يستخلص منه المال ، فأخذه ابن صابر وشهره بالقاهرة وعاقبه بالقيسارية مرارا حتى أخذ منه مبلغ خمسين ألف درهم ، ثم تحول النشو على بفا ، وراح يقول عنه انه مرتش ، وكان السلطان يكره الرشوة ، فأثر فيه كلام النشو ، فأخرجه ، وسمى النشو أيضا بطقتمر الخازن حتى غير السلطان عليه .

.. وفى ليلة الثلاثاء ثالث عشر رجب قبض على ابن هلال الدولة ، وعلى ناصر الدين محمد ابن المحسنى ، وأخرجوا الى الاسكندرية بسعاية النشو .

واشتدت وطأة النشو على الناس ، وابتكر مظلمة لم يسبق آليها وهى انه ألزم أهل الصاغة ودار الضرب الا يبتاع منهم أحد ذهباً ، بل يحمل الذهب جميعه الى دار الضرب ، ليصك بصكة السلطان ، فجمع من ذلك مالا كثيرا للديوان ، ثم تتبع النشو الذهب المضروب فى دار الضرب ، فأخذ ما كان منه للتجار والعامة ، وعوضهم عنه بضائع ، وحمل ذلك كله للسلطان ، وانحصر ذهب مصر بأجمعه فى دار الضرب ، فلم يجسر أحد على بيع شىء منه فى الصاغة ولا فى غيرها ، ثم ان السلطان استدعى منه بعشرة آلاف دينار ، فاعتذر عنها فلم يقبل عذره ونهره فنزل النشو وألزم أمين الحكم بكتابة ما تحت يده من مال الأيتام ، وطلب منه عشرة آلاف دينار قرضاً فى ذمته ، فدله على مبلغ أربعمائة ألف درهم

لايتام الدوادارى تحت ختم بهاء الدين شاهد الجمال ،
فأخذها منه وعوضه عنها بضائع ، ثم بعث النشو الى
قاضى القضاة تقى الدين محمد بن أبى بن عيسى الاخنائى
المالکى فى تمكينه من مال اولاد (الامير) أرغون النائب ،
وهو ستة آلاف دينار ، وكانوا تحت حجرة فامتنع وقال
« السلطان ما يحل له أخذ مال الايتام » . فرد عليه
« السلطان انما يطلب المال الذى سرقه أخوك من خزانة
الخاص حيث كان ناظرها ، فان الحساب يشهد عليه
بما سرقه من الخزانة » . وقام فى فورة الى السلطان ،
وما زال به حتى بعث الى القاضى يلزمه بحمل المال الذى
سرقة أخوه من الخزانة ، ويقول له « انت ايش كنت من
مملوكى ؟ » فلم يجد قاضى القضاة بدا من تمكين النشو
من أخذ المال .

.. فى ذى القعدة من نفس السنة ، سقط طائر حمام
بالميدان ، وعلى جناحه ورقة تضمنت الواقعة فى النشو
وأقاربه ، والقسح فى السلطان بأنه أخرب دولته ،
فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ، وطلب النشو
وأوقفه على الورقة وتنمر عليه لكثرة ما يشكى منه ،
فقال : « ياخوند : الناس معذورون : وحق رأسك لقد
جاءنى خبر هذه الورقة ليلة كتبت : وهذه فعلة المعلم
أبى شاکر بن سعيد الدولة ناظر البيوت ، كتبها فى بيت
الصفى كاتب الأمير قوصون ، وقد اجتمع هو وأقاربه » ،
وأخذ النشو يعرف السلطان بما كان من أمر سعيد الدولة
فى أيام بيبرس الجاشنكير وأغراه به حتى طلبه ، وسلمه
الى الوالى علاء الدين على بن حسن المروانى ، فعاقبه

عقوبة مؤلمة ، وطلب السلطان الامير قوصون وعنفه على فعل الصفى كاتبه ، فطلبه قوصون وهدده ، فحلف بكل يمين على براءته مما رمى به ، فاتبع النشو عدة من الكتاب وجماعة من الباعة ، وقبض عليهم بسبب ابن شاكرا ، ونوع العذاب عليهم بيد الوالى ، وخرب دورهم بالمحراث ، وقبض النشو على الموفق هبة الله ابن سعيد الدولة ، ثم أفرج عنه بعناية الامير اقبغا عبد الواحد . وعذب ابن الازرق ناظر الجهات .

ارباب الدواليب يتضررون من سطوة النشو

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

.. وفيها اجذبت زراعة الفول ، فالزم النشو سمسرة الفلال الا يباع الفول الا للسلطان فقط ، فتضرر ارباب الدواليب (المقصود بالدواليب جميع الآلات المستخدمة فى الزراعة والصناعة ، وهذه الآلات كانت تدور بالابقار ، والابقار تعتمد على اكل الفول) .

وفيها صاير النشو جماعة من ارباب الدواليب بالوجه القبلى ، وأخذ من محتسب البهنسا وأخيه مائتى ألف درهم وألفى أردت غلة ، فرافع بن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو ، فاقتضى رأيه مصادرة ابن زعازع لكثرة ماله ، وأوقع الحوطة على موجوده ، وكتب الى والى البهنسا ليعاقبه أشد العقوبة ، فلف والى البهنسا على أصابعه الخروق وغمسها فى

القطران وأشعل فيها النيران ، ثم عراه ولوحه على النار ، حتى أخذ منه ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف درهم . ووجد له أربعمائة فرجية بفرو ، ومائة وعشرين جارية وستين عبدا ، ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمائة ألف درهم ، واحتج النشو بمصادرته بأنه وجد كنزا .

وفيهما ارتفع سعر اللحم لقلة جلب الاغنام حتى بيع الرطل بدرهم وربع ، وسبب ذلك ان النشو كان يأخذ الغنم بنصف قيمتها ، فكتب الى نائب الشام ونائب حلب بجلب الاغنام ، ثم ان النشو استجد للسواقى التى بالقلعة أبقارا ، وأحضر أبقارها التى ضعفت وعجزت مع الأبقار التى ضعفت بالدواليب ، وطرحها على التجار والباعة بقياس القاهرة ومصر وأسواقها حتى لم يبق صاحب حانوت الا وخصه منها شىء على قدر حاله ، فبلغ كل رطل منها درهمين وثلث ، ورميت تلك الأبقار على الطواحين والحمامات كل رأس بمائة درهم ولا تكاد تبلغ عشرين درهما فبلى الناس من ذلك بمشقة وخسارة كبيرة .

واتفق ان النشو أغرى السلطان بموسى بن التاج اسحق حتى رسم بعقوبته الى ان يموت ، فضرب زيادة على مائتين وخمسين شيبا (الشيب سير السوط أى الكرباج) ، حتى سقط كالميت ، ثم ضرب من الفد أشد من ذلك ، وحمل على انه قد مات ، فسر النشو بذلك سرورا زائدا ، وذهب ليرى موسى وهو ميت فوجد به حركة ، وفى أثناء ذلك طلب السلطان الامير لؤلؤ فأخبره بان موسى قد بدا يثن ، وبعد ساعة يموت ، فرسم الا يضرب بعد ذلك ، فشق هذا على النشو .

وفيهما قل فرو السنجاب من الاسواق ، وذلك لقلة
جلبه ، فأمر النشو بأخذ ما على التجار من الفرجيات
ذات الفرو ، فهوجمت حوانيت التجار والبيوت حتى أخذ
ما على الفرجيات من السنجاب ، فبلغ النشو دعاء التجار
عليه فسمى عند السلطان عليهم ، ونسب اليهم أخذ
الربا ، وقال ان عندهم كميات كبيرة من الاخشاب
والحديد واستأذنه في بيعها عليهم ، فأذن له السلطان
فنزل وطلب تجار القاهرة ومصر وكثيرا من أرباب
الاموال ، ووزع عليهم من ألف دينار كل واحد الى ثلاثة
آلاف دينار ليحضروا بها ويأخذوا عنها صنفا من
الاصناف ، فبلغت الجملة خمسين ألف دينار ، وضرب
من تخلف منهم بالمقارع ، ويبدو ان أحد هؤلاء التجار
كان على معرفة بالست حدقة زوجة السلطان وأم ابنه
أنوك ، فذهب اليها وشكا النشو ، وقال ان الخشب
الذى فرضه عليه قيمته الحقيقية ألفا درهم ، وطلب منه
النشو ألف دينار ثمنا له ، عندئذ تحدثت السيدة حدقة
الى السلطان في ظلم النشو للناس فطلب السلطان
النشو ، وأنكر عليه ذلك ، وتجهم له ، فانصرف النشو
وهو في حالة شديدة من الغيظ ، وبدأ يدير انتقاما
من ذلك التاجر ، استدعى رجلا واتفق معه على الانتقام
من التاجر ، ذهب الرجل الى التاجر وسأله في قرض
مبلغ من المال ، فأخذ التاجر يشكو مما به من الزامه
بألفي دينار عن ثمن خشب طرحه عليه النشو ، فقال له
الرجل : « ارنى الخشب فانى محتاج اليه » ، فلما
رآه أعجبه واشتراه منه بفائدة ألف درهم في الشهر ،

امتلا التاجر فرحا ، وأشهد عليه بذلك ، ومضى الرجل
ليأتى بثمر الخشب ، عاد الى النشو وأخبره بما تم ودفع
اليه بنسخة المبايعه ، فقام من فوره الى السلطان وأعلمه
انه نزل ليرفع الخشب من حاصل التاجر فوجده قد
باعه بفائدة ألف درهم فطلب السلطان التاجر وسأله عما
رماه عليه النشو ، فأغتر البائس وأخذ يقول « ظلمنى
وأعطانى خشبا بألفى دينار يساوى ألف درهم ، فقال له
السلطان « وأين الخشب » قال « بعته بالدين » ، فقال
النشو « قل الصحيح فان هذه معاقدتك بيعه » ، فلم
يجد بدا من الاعتراف ، فحنق عليه السلطان وقال
« ويلك ، تقيم الغائة » تستفيث « وأنت تبيع بضاعتى
بفائدة ؟ » ثم أمر النشو بضربه وأخذ الالف دينار منه مع
مثلا ، وعظم النشو عند السلطان ، ثم عبر السلطان الى
نسائه وسبهن وعرفهن ما جرى ، وقال :

« مسكين النشو ما وجدت له أحدا يحبه كونه
ينصحنى ويحصل مالى » .

وفى نفس السنة شكوا المماليك من تاجر كسوتهم ،
فطلب السلطان النشو وألزمه بحمل كسوتهم من الغد ،
ومعها مبلغ عشرين دينار فنزل النشو وألزم الطيبى ناظر
المواريث بتحصيل خمسة آلاف دينار ، وبعث المقدمين
الى الاسواق ففتحوا حوانيت التجار وأخذوا كسوة
المماليك وحوائجهم وأخفافهم ونعالهم وغير ذلك ،
وأخذوا مركبا فيه عدة بضائع طرحوها على الناس
بثلاثة أمثال قيمتها ، وأحيط بتركة نجم الدين محمد

الاسسعودى ، وقد مات وترك زوجة وابنة وابن . .
وأخذت كلها ، وأخذت وديعة من تركته لاولاده أيتام تحت
حجره ، مبلغا نحو خمسين ألف درهم ، وأنفقت فى
يومها على الممالك والخدام ، وفتحت قيسارية جهازكس ،
وأخذ منها مقاطع الشرب « قماش رفيع من الكتان »
برسم الكسوة ، فارتجت المدينة بأهلها ، وترك كثير من
التجار حوانيتهم وغيبوا ، فصارت مفتحة ، والاعوان
تنهب لانفسها ما أرادت ، فلم ير يومئذ بالقاهرة ومصر
الا باك او صائح او نائح ، فكانا يومين شنيعين ، وعول
أرباب الحوانيت على رفع ما فيها وخلوها ، فعرف النشو
السلطان ذلك فنودى « من أغلق حانوته أخذ ماله
وشنق » ففتحوها . .

نعم . .

لم يبق فى مصر الا باك او صائح او نائح .
هكذا فى بساطة وقوة يلخص المقريرى ما وصل اليه
حال الناس تحت سطوة النشو ، وتمضى السنوات حافلة
بظلمه ، يمضى النشو الى الأقاليم فيصادر الاموال ، واذا
أفرج عن انسان يشق هذا عليه ، ولا يهدأ له باله حتى
يعيده مرة أخرى الى السجن ، وفى هذا الخضم تجرى
محاولة لاغتيال النشو ، اذ حدث فى يوم الاثنين ثانى
عشر رمضان ان اعترضه فارس ، ضربه ، فأخطأ سيفه
راس النشو ، جرح كتفه فقط ، فغضب السلطان غضبا
شديدا ، ولم يحضر السباط . وأرسل الاطباء لمعالجة
النشو ، وأغلظ على الامراء بالكلام ، وما زال يشتد
ويحتد حتى عاد القصاد بسلامة النشو فمكن ما به .

وتجىء سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ولا يكف
النشو ، ولا يهدأ ، يسعى فى الناس بالشر ، ولا ينجو
من أذاه أمير أو طحان ، وعندما يبلغه أن الوعاظ يدعون
عليه من فوق منابر الجوامع ، يسعى السلطان حتى يمنع
الوعاظ بأجمعهم من الوعظ ، وتستمر الأحوال على ما هى
عليه فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، يأخذ النشو مال
الاقباط مع أنه كان فى الأصل قبطيا ثم أسلم ، ويستولى
على حلى النساء ، يقول المقرئى :

« وفيها كثرت مصادرة النشو للناس من أهل مصر
والقاهرة والوجه البحرى والقبلى ، حتى خرج فى ذلك
الحد » .

ولكن لكل أول آخر ، ولكل بداية نهاية ..

النهاية

سنة أربعين وسبعمائة .

فى يوم الاثنين ثانى صفر قبض على النشو ، وعلى
أخيه شرف الدين رزق الله ، وعلى أخيه المخلص ،
ورفيقه مجد الدين ، وعلى صهره ولى الدولة .
كيف ؟

لنصغ الى المقرئى محدثنا عن هذا الزمن البعيد ..
« .. وسبب ذلك انه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث
قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار لطرح
الاصناف عليهم بأغلى الاثمان ، وطلب السلطان منه
يتزايد ، خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة ، الى
التعرض الى الخاصة ورتب مع أصحابه ذلك .

وكانت عاداته فى كل ليلة ان يجمع اخوته وصهره ومن
يثق فيه للنظر فيما يحدثه من مظالم فيدله كل منهم
على داهية ، ثم يفترقون وقد أبرم للناس بلاء يعذبهم
الله به من القدر على يده ، فكان مما اقترحه ان رتب
اوراقا تشتمل على فصول يتحصل فيها ألف ألف دينار
عينا ، وقراها على السلطان ، ومنها التقاوى السلطانية
المخلدة بالنواحي من الدولة الظاهرية بيبرس والمنصورية
قلاوون فى اقطاعات الامراء والاجناد وجملتها مائة ألف
أردب ، سوى ما فى بلاد السلطان من التقاوى ومنها
الرزق الاحباسية على الجوامع والمساجد والزوايا وغير
ذلك وهى مائة ألف فدان (وثلاثون ألف فدان) .

ويمضى المقرئ فى سرد تفاصيل ما خطه النشو
مع اقاربه للاضرار بكبار الامراء وكان ما تفتق عنه ذهنه ،
هو الزام متولى كل اقليم باستخراج التقاوى من ارضه
وحملها الى خزائن السلطان ، ثم تباع من جديد الى
الناس بمعرفة الخاصة السلطانية ، انزعج الامراء من هذا
القرار ، وقال احدهم للسلطان : « يا خوند والله ان
النشو لضرك اكثر مما ينفعك » .

ويبدو ان السلطان آمن الفكر ، وأحسن ان النشو
مكروه لدى الجميع ، ولم يكن اتخاذ القرار سهلا ،
فكتب الى الامير تنكز نائب الشام يستشير فى الامر ،
ويخبره ان النشو أصبح مكروها من الجميع ، ولكنه
يخدم السلطان وينفعه ، وأجاب الامير تنكز مؤيدا لسوء
سيرة النشو ، وختم خطابه قائلا : « ورأى السلطان فيه
أعلى » .

وكثرت الاوراق التى كانت تلقى الى السلطان وتحوى
ذما للنشو ، ومما قيل فى بعضها :

أيا ملكا أصبح فى نشوة
من نشوة الظالم فى نشيه
أنشيته فلتنشئن صفائنا
سترى غباوتها بصحبة غيبه
حكمته فحكمت أمرا فاسدا
وتوحشت كل القلوب لفحشه
سترى بوارقها اذا ما اظلمت
وتحكمت ايدى الزمان ببطشه
ولتندمن ندامة كسبيه
يوما اذا ذبح الخروف بكبشه
وقرا السلطان فى ورقة أخرى :

أمعنت فى الظلم واكثرته
وزدت يا نشو على العالم
ترى من الظالم فيكم لنا
فلعنة الله على الظالم

وحدث ان مرض الامير يلبغا ، وكان السلطان يثق
فيه ، فأقام عنده حتى يطمئن عليه ، وخلال حديثهما
قال يلبغا : « ياخوند : قد عظم احسانك لى ووجب
على نصحك ، والمصلحة تقضى بالقبض على النشو ،
فالامراء جميعا يكرهونه ، ويكرهونك لحبك اياه ، وما من
مملوك من ممالك الا يترقب غفلة منك ليقضى عليك
انتقاما منك لانك تركت هذا الشخص يعبت بمصالح
الناس » .

وبكى يلبفا ، وبكى النصارى ، وقام من عنده مبلبل
الخاطر ، ليصدر أمرا بالقبض على النشو .

يقول المقرئى :

« وطلب السلطان المقدم ابن صابر ، وأسر اليه أن
يقف بجماعته على باب القلعة وباب القرافة ، ولا يدعو
واحدا من حواشى النشو وأقاربه وأخوته أن ينزلوا ،
وأن يقبضوا عليهم كلهم ، وأمر السلطان الأمير بشتاك
والأمير برسبغا الحاجب أن يمضيا الى النشو ، ويقبضا
عليه وعلى أقاربه فخرج بشتاك وجلس على باب الخزانة
وطلب النشو من داخلها ، فظن النشو انه جاء لميعاده
مع السلطان حتى يحتاطا على موجود أقبغا عبد الواحد ،
فساعة ما وقع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه الى بيته من
القلعة ، وبعث الى الأمير ملكتمر الحجازى فأخذ أخاه
رزق الله وأخذ أخاه المخلص وسائر أقاربه ، فطار الخبر
الى القاهرة ومصر ، فخرج الناس كأنهم جراد منتشر » .
خرج الناس كالجراد المنتشر !!

لحظة مدببة فى مسار الزمن ، عندما ينتهى الكابوس
العام ، فيسرى الاثر الى كل انسان ، البعيد ، الدانى ،
الكبير ، الصغير ، لحظة الخلاص ، عندما يندفع الانسان
الى خارج بيته ، يظن انه بمفرده ، واذا بالجميع فى
الشارع ، هكذا خرج الناس كالجراد المنتشر عندما
سمعوا بخبر القبض على النشو وزمرته ، وفى القلعة
جلس السلطان ولا زال فى نفسه شك ، انه يقول
للأمراء :

« وكم تقولون النشو نهب أموال الناس ! الساعة
ننظر المال الذى عنده » .

فى القاهرة يعم الفرح ، أغلقت الاسواق ، واتجه
الجميع الى ميدان الرميلة تحت القلعة ، كما يتجهون
الى ميدان التحرير فى العصر الحديث ، أو ميدان
العتبة ، أو الى منشية البكرى (ليلة التاسع من
يونيو ١٩٦٧ ، ليلة وفاة عبد الناصر) ، جاء الليل
والناس لم تنصرف بل أوقدوا الشموع ، يرفعون على
رءوسهم المصاحف ، وينشرون الاعلام ، وهم يضجون
ويصيحون استبشارا وفرحا بقبض النشـو ، والأمراء
يشيرون اليهم أن يكثروا مما هم فيه ، وقضوا الليل
كله على ذلك ، وفيه زاد النيل بعد توقفه ، فقال
علاء الدين الشاعر :

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر
نادى البشير الى أن أسمع الفـلـكا
يا أهل مصر نجـا موسى ونـيـلكم
طفـا وفرعون وهو النـشـو قد هلكا

صباح الثلاثاء ، نودى فى القاهرة :

« بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من
النشـو » .

صباح الثلاثاء ايضا انتحر شقيق النشو ، وأخرجوه
فى تابوت امرأة حتى دفن فى مقابر الاقباط خوفا عليه
من العامة ، وتمت الحوطة على أموال النشو ، النشو
الذى كان يتظاهر بالفقر والحاجة ، والذى كان السلطان
يظن حتى آخر لحظة انه لا يمتلك شيئا ، فماذا وجدوا
عند النشو ؟ ، فى بستان بجزيرة الفيل وجدوا أمه وامراته
وأخته وولديه ، ومعهم ستون جارية ، ومائتا جنيـه

(كيس من جلد البعير) وغضير عنب ثم حمل الامراء تروة النشو الى السلطان ووضعوها بين يديه ، وضعوا خمسة عشر ألف دينار ذهب ، وألفين وخمسمائة حبة لؤلؤ قيمة كل حبة ما بين ألفي درهم الى ألف درهم ، وسبعين فصا بلخش قيمة كل فص ما بين خمسة آلاف درهم الى ألفين ، وقطعتين زمرد فاخر رطل ونيف وستين حبلا من لؤلؤ كبار زنة ذلك اربعمائة مثقال ، ومائة وسبعين خاتم ذهب وفضة بفصوص مثمنة ، وكف مريم مرصع بجوهر ، وصليب ذهب مرصع ، وعدة قطع زركش سوى حواصل لم تفتح ، فخجل السلطان لما رأى ذلك ، واستمر الامراء ينزلون كل يوم لاجراج حواصل النشو ، فوجد له من الاواني الصينى والبلور والتحف السنية الشيء الكثير ، ثم وجدت عنده مائتي برميل مملوئين بالملوحة « سمك مملح » وثمانين بالجبن ، وأحمالا كثيرة من بضائع الشام ولحما كثيرا من لحم الخنزير ، وأربعة آلاف جرة خمر ، سوى ما نهب ، ووجد له اربعمائة بدلة قماش جدد ، وثمانون بدلة مستعملة ، وزراکش ومفرجات (عباءات) ، وستون قفطانا نسائيا ، ومناديل زركش عدة كثيرة ، ووجد له عدة صناديق بها قماش سكندري كان قد صنع لحساب ملكة المغرب ولكنه اختلسه وكثير من قماش الامراء الذين ماتوا او قبض عليهم ، ووجد له مملوك تركى كان النشو قد خصاه هو واثنين معه ماتا ، ثم وجدوا لاخوة النشو ذخائر نفيسة ، منها لصهره ولى الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فص بلخش ، وستة وثلاثون مرملة (ظرف كان يوضع فيه

الرمال الذي يستخدمه الكتاب لتجفيف الكتابة (مكللة
بالجواهر الرائعة واحد عشر عنبرية مكللة بالؤلؤ كبار،
وعشرون طراز زركش ، وغير ذلك ما بين لؤلؤ منظوم
وزمرد ، وكوافي زركش ، وقدر الجميع بأربعة وعشرون
ألف دينار .

وفي نهاية هذه السنة ٧٤٠ هجرية ، مات النشو ،
واندثر أمره مات النشو عام ٧٤٠ هجرية بالتحديد يوم
الأربعاء ثاني ربيع الآخر .

لكن بعد انقضاء سبعة قرون على اختفائه ، هل يمكن
القول انه اختفى من حياتنا ؟ ..

السلطان الطفل

« . . فلما كان يوم الأحد سابع وعشرين ذى القعدة من سنة احدى وتسعمائة ، توفى الملك الاشرف أبو النصر قايتباى الحمودى الظاهرى ، دفن فى اليوم التالى ، رحل بعد ان حكم مصر والديار الشامية تسع وعشرين سنة واربعة أشهر وواحد وعشرين يوما ، كان سلطانا عظيما ، شهما ، وقورا ، وافر العقل ، سديد الراى ، يتروى فى الامور قبل وقوعها ، شجاعا ، فارسا قديرا ، وكان عصره من العصور الزاهية .

بعد وفاته صار السؤال المطروح من بعده يلى الحكم ؟ كان هناك عدد من المماليك يتربص بكرسى السلطنة ، مثل الامير قنصوه خمسمائة ، وكرتباى الاحمر ، ولما كان انقضاى اأدهم على السلطة سيفجر الصراعات والحروب ، فقد جرت العادة فى مثل هذه الاحوال على تولية أحد أبناء السلطان حتى لو كان طفلا رضيعا . وبمضى الايام تتم الغلبة لمن هو أقوى . هكذا وقع الاتفاق على سلطنة ابن السلطان . بايعه الامراء من غير موافقة والده الذى كان يلفظ أنفاسه الاخيرة ، وتلقب بالناصر ،

كان عمره أربعة عشر عاما واشهر ، يقول ابن اياس :
« ولو كان قايتباى واعيا لما مكن الامراء بأن يسلطنوا
ولده ، ولا كان ذلك قصده » . ويبدو ان الاب كان يعرف
ابنه جيدا ، المهم احضرت شعائر الملك ، وهى الجبة
السوداء ، وقد فصلت على قده ، ولفت له عمامة لطيفة
مناسبة له ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج المذهب
والكنبوش ، وتقدم الامير قنصوه ، وحمل القبة والطيح
على رأسه ، ومشى السلطان حتى جلس على سرير الملك ،
وهكذا تولى امر مصر والديار الشامية ، حدث عمره
أربعة عشر عاما ، دون البلوغ . .



.. تأسف الناس على موت قايتباى ، وخرجوا الى
جنازته ، حتى ان ابن اياس يقول « وكانت جنازته
مشهودة بخلاف من يموت من الملوك » ، ولم يستبشر
الناس خيرا بالسلطان الجديد ، ويبدو ان ظاهرة الحاكم
القوى الذى يعقبه سلسلة من الحكام الضعاف تتكرر فى
التاريخ المصرى ، نجدها فى العصر الفرعونى ، رمسيس
الثانى مثلا يموت ، ويخلفه اثنى عشرة من الرعامسة ،
لا يتوقف عندهم أحد ، خوفاً الذى شيد الهرم الاكبر ،
ثم خفرع الاقل حجما حتى فى هرمه ، ثم منقرع ، ثم
ملوك آخرين غير معروفين ، وفى تاريخنا الحديث بدأت
الاسرة العلوية بمحمد على باشا الكبير ، وانتهت فى
القرن التاسع عشر بالخدوى توفيق الخائن ، والجبان ،
الذى نكب مصر بالاحتلال الانجليزى .

هكذا جاء الناصر ابن الرابعة عشر م خلفا لابييه قايتباى

العظيم ، كان جميل الهيئة ، مليح الشكل ، ولكنه هذا النوع من الجمال الذى يخفى فى طياته القبح الداخلى . والشر ، والقسوة الزائدة ، لم يشعر بحزن كبير على والده ، انما راح يمعن النظر فرحا فى السلطة التى أصبحت فجأة بين يديه ، الامراء الكبار يقبلون له الارض بين يديه ، الخليفة يمشى منكس الرأس ، الكل يسعى اليه ويطلب وده ، لا شىء يحول دون تحقيق رغباته ، فى نفس الوقت عظم امر الاتابكى قنصوه خمسمائة الى الفاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ، ولا صلاة الجمعة ، وفى بداية عام اثنتين وتسعمائة شعر السلطان ان الكل يتربص به ، فأحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الامراء والعساكر ، ولم يطلع قنصوه خمسمائة ولم يحلف فى بداية الامر على الولاء للسلطان ، ولكنه طلع بعد أيام وحلف ايمانا غير صادقة ، ويبدو ان السلطان الغلام شعر ببعض الاطمئنان بعد القسم ، لم يكن شىء يحول دون تحقيق شهواته ، بدأ طيشانه يظهر ، فى أحد الايام قبض على امرأة ، وضربها بين يديه بالمقارع ، وأمر باشهارها على حمار وفى عنقها زنجير حديد ، وهذا شىء لم يحدث قط من قبل ، ان تضرب امرأة بين يدى سلطان ، بل انه ضربها بنفسه ، وبدأ متلذذا بالضرب ، مستمتعا به ، ثم بدأ فى النزول من القلعة ومصاحبة الاوباش ، واللعب معهم ، وتدخلين الحشيش ، واثيان الرذائل ، واضطر الامراء الى احاطته بأربعة من الحاشية لمنع من النزول واللعب مع اولاد العوام ، وصار الامير تانى بك الجمالى يبات عنده كل

ليلة فى القلعة ليمنعه من ذلك ، ولكن رغبات السلطان كانت أقوى ، وشهواته أعنف ، وطيشه أعظم ، ولم يكن يهتم بمظاهر السلطنة ، فى ربيع الاول (٩٠٢ هـ) أقام السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وكان اول احتفال عام يقيمه ، ويحضره ، جلس بين الامراء ، وفجأة اعتراه النعاس ، واضطر الامراء الى رش الماء على وجهه حتى يفيق ، فى هذه الفترة بدأت الاطمساع تتحرك ، فى جمادى الاول تزايدت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وفى مثل هذه الحال تغلق الاسواق ، تقفر الطرقات ، ويقبض الناس خلف جدران بيوتهم ينتظرون نتيجة الصراع ، وللمرة الثانية يحضر السلطان المصحف العثمانى ويحلف الامراء والجنود عليه ، ولم تمض عدة أيام حتى تحرك الامير قنصوه ، ركب بعساكره ، وملك باب السلسلة ، ثم جلس وأرسل يستدعى أمير المؤمنين الخليفة المتوكل ، والقضاة الاربعة ، وسائر الجند ، فلما تكامل المجلس تشاوروا فى خلع السلطان الناصر وسلطنة قنصوه ، وبالفعل ، قرروا خلع السلطان ، تشاوروا فى ذلك ، وكتبوا محضرا ، وشهد فيه الكثيرون ، وبويع الامير قنصوه بالسلطنة ، وتلقب بالاشرف أبى النصر ، وقبل له الامراء الارض والعسكر قاطبة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الاصوات بالدعاء ، ولم يتبق له الا أن يركب فرس النوبة ، ويلبس الجبة السوداء ، والعمامة السلطانية ، وتحمل على رأسه القبة والطيور ، والاهم من ذلك كله صعوده الى قلعة الجبل ، وجلسه على سرير الملك ، والاستيلاء على القلعة فى العصر

المملوكى كان هو الفيصل فى الصراع ، كان سقوطها يعنى استلام السلطة بشكل كامل ، ويعكس ذلك مركزية السلطة الشديدة فى مصر ، ولكن وقعت عجائب ، وغرائب ، كما يقال :

ستقضى لنا الايام غير التى غدت
ويحدث من بعد الامور امور

كل الامور مهياة .

ارسل السلطان الجديد بعض الامراء الى القلعة للقبض على الملك الناصر ، ولكن جماعة من ممالك ابيه تعصبوا له ، وتصدوا للامراء ، وكان على رأسهم خال السلطان الناصر ، ودار القتال فى القلعة ، واستمر حتى يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة ، فى هذا اليوم أصاب قنصوه سهم سقط مفشيا عليه ، فحمله الفلماني على أكتافهم ، وبقي لباسه بدكته ظاهرا للناس ، ورأسه مكشوفة ، وهكذا فقد السلطان الجديد هيئته ، واختفى فى القاهرة ، فلما انكسر نزل ممالك السلطان الفلام ، ونهبوا الامراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم وفى اليوم التالى طلع الخليفة والقضاة الى القلعة ، لتهنئة السلطان الفلام بانتصاره ، وبايع الخليفة السلطان الفلام مرة ثانية بعد أن كان قد خلع منها ، انعم السلطان على خاله الذى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى الأرباب الوظائف من بابه ، وبعد عدة ايام ظهر الامير قنصوه مرة أخرى ، ولكن لم يتحمس الجند للوقوف معه ، فاضطر للهرب مرة أخرى ،

خارج القاهرة ، ولم يمض وقت طويل حتى قتل ، غير
أن تمرد قنصوه جعل السلطان الغلام مهددا باستمرار ،
حتى أن بعض المماليك اقترحوا تغيير لقب السلطان ،
ولقبـوه بالملك الأشرف على لقب أبيه ، واحتج بعض
الأمراء ، كيف يكون ذلك وقد خرجت المناشير الى كل
البلاد باللقب الاول ، ولكن المماليك صمموا ، وعند ذلك
نودى فى القاهرة ان السلطان تغير لقبه ، الى الملك
الأشرف ، فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطباء
فريقين بعضهم يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب
باسم الملك الأشرف ، وقع الاضطراب فى كل شيء ، وهجم
المنسر على سوق باب اللوق وسوق تحت الربيع ، وقطع
العربان الطرق فى الريف ، وبرغم اضطراب الاحوال ، فان
السلطان الغلام لم يتعظ ولم يشب الى رشده ، بعد انتهاء
الفتنة اندفع فى سلوكياته أكثر قوة ، وأشد .



اختار السلطان الغلام عددا من اللصوص ، والاوزباش ،
فصاحبهم ، ولازمهم وصنعوا له مركبا صغيرة ، جعل
فيها حلوى وفاكهة وجبن مقلّى ، وكان ينزل بنفسه فى
المركب ، ويبيع كما يبيع الباعة فى بركة الرطلى زمن
فيضان النيل ، وكان يقلد أصوات الباعة ، ويبدو
مسرورا بتمثيله دور البائع ، ثم يظهر لمن يلعب معهم
فجأة القسوة ، يذكرهم بأنه السلطان ، واذا يرى رعبهم
منه يضحك ، يضحك مسرورا ، وفجأة أمر بالقبض على
سبعة من أهل الفساد الذين كانوا يلعبون معه ، أدخلهم

الى الحوش فى وسط القلعة ، أمر بقيدهم ، ثم استدعى المشاعلى (المكلف باعدام الناس) ، وطلب منه أن يعلمه كيف يوسطهم ، فراح المشاعلى يعلمه ذلك أمام رفاقه فى اللعب ، وهو يختلس النظر بين الحين والحين الى وجوههم مستمتعا برعبهم ، ثم تقدم منهم ، أمسك بالسيف ، وبدأ بأن قطع أيديهم ، ثم قطع آذانهم ، ثم قطع ألسنتهم بيده ، وكلما علت صرخاتهم ، كلما ازداد قسوة ، وازداد متعة ، وبعد أن وسطهم جميعا ، دخل الى قاعة الملك ليدبر أمور الدولة ، لقد رأى الدمر الانسانى ، وأشبع عينيه فرأى الدماء ، انه يريد ان يرى دعر الحيوانات ، أمر باحضار عدد منها وقطعها بيده ، ثم أمر باحضار عدد من الحيات السامة ، فقطعت بحضوره ، وبعد انتهاء تقطيعها أهدى من قاموا بهذه العملية الخلع والهدايا .

العيد

الامور تضطرب ، يجيء الصيف ويشد الحر ، يعز وجود السقاين ، يتكالب الناس على الجمال التى تنقل المياه من النيل حتى انهم تخانقوا بالعصى ، يتزايد اذى المماليك ، ينزلون الى الاسواق ويعترضون المارة ، يخطفون العمائم ، وخطف العمائم من الامور الشائعة ، فى هذا الزمان الآن الناس اعتادوا وضع نقودهم فى لفات القماش التى تحيط بالعمامة ، الا من مفتقر تماما ، والسلطان كلما تقدم به السن لا يعقل ولا تدركه حكمة ،

فى يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان عام ٩٠٢ هـ ،
يأمر السلطان بأن تدق الكوسات فى القلعة ، يقول
لن حوله « أنا أعمل العيد فى الغد من هذا الشهر أن رأوا
الهلال أو لم يروا » ، فلما أشيع ذلك بين الناس ركب
قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع الى
القلعة ، فاجتمع بالسلطان وراح يشرح له ان العيد
لا يكون شرعا الا اذا روى الهلال ، وشق الامر على السلطان ،
غضب ، كيف لا ينفذ ما ارتآه ، كيف لا تتحقق رغباته
حتى وان بدت مخالفة للشرع ، للدين ، ليست خيوط
السلطة كلها فى يده ، هم بعزل القاضى فى ذلك اليوم ،
فى اليوم التالى كان الخميس ولم يظهر الهلال ، فجاء
العيد يوم الجمعة ، وكان السلطان يخشى فى أعماقه
مجيء العيد يوم الجمعة ، بسبب اعتقاد ساد فى مصر
خلال العصور الوسطى ، وحتى الآن بين الطبقات
الشعبية ، وهو انه اذا جاء العيد يوم الجمعة ، وقيمت
الصلاة فيه مرتين كان ذلك ايدانا بزوال الحساكم عن
قريب ، جاء العيد يوم جمعة ، ولم يخرج السلطان الى
الصلاة ، ولم يطلع الاتابكى تماراز الى القلعة ، ولا بقية
الامراء المقدمين ، ولم يكن السلطان فى موقعه ، انما
كان فى قاعة البحرة يقضى العيد مع الاوباش واللصوص .
يقول ابن اياس :

« وكان الناصر فى تلك الايام فى غاية الطيشان . . »

وينتهى عام ٩٠٢ هـ ، ويعلق ابن اياس :

« وقد خرجت هذه السنة على ما شرح فيها من
الفتن والافكار ، والفساد ، وخراب البلاد ، ووقع فيها

الفلاء وتشحطت الفلال ، وقتل فيها من الامراء نحو من خمسين اميرا ، ما بين مقدمين ألوف وطبلخانات وعشرات ، وقد تقدم ذكر ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل هذه السنة الى أواخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع ، وقتل من الجند والعرب نحو من ألف انسان فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . . » .

سلطان فى الرابعة عشر ، مراهق ، شاذ ، ما من شيء يحول دون رغباته الحسية ، ينزل بين الحين والحين الى تربة أبيه مع أصحابه اللصوص ، وفى الليل يأتى بما لم يسمع بمثله ، يقول ابن اياس :

« وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوىء لا ينبغى شرحها » .

وفى هذه الايام يجىء الطامعون ، ومات من الاطفال والمماليك والعبيد والجوارى عدد كبير ، واستمر المماليك فى أذاهم للسلطان استخفوا به ، وجاروا على الناس بخطط القماش من الدكاكين والبضائع من الاسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والامراء ، حتى قيل أن بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنازة فى وجهه ، فجفل منها فرس ذلك المملوك ، فسقط الى الارض ، فخرج خلفه وهاش على الجمالين الذين يحملون الميت ، فهربوا بعد أن ألقوا الميت على الارض ، فلما هربوا راح يضرب الميت حتى شفى غليله !

كل تفاصيل الحياة تصبح قبيحة ، اذا كان الحاكم قبيحا ، عرفنا ذلك جيدا فى مصر ، طوال تاريخها البعيد ، والقريب ، أما السلطان الفلام فلاه ، لا يعبأ ، غارق فى طيشه ، ينزل الى بولاق فى مولد سيسى

اسماعيل الامبابى ، رحمة الله عليه ، يقبر النيل فى قارب ، ومعه بعض اولاد عمه ، اوقد حراقة نبط هائلة « صواريخ » وبات هذه الليلة فى المركب ، ثم تكرر منه ذلك فى عدة ليالى اخرى ، ثم صار يركب بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء وامامه فانوسين واربعة مشاعل ، وعدد من العبيد السود ، واذ يرى اى انسان فى الطريق يناديه ، ثم يسأله بصوت هادى ، ويتحاور معه ، وفجأة يأمر بامساكه ، ثم ينزل من فوق جواده ويقطع اذنيه وانفه بيده ، او يقتله ، وهكذا قتل من الناس عدد لا يحصى فى مدة بسيطة ، وكان اذا مر بدكان ولم ير عليه قنديلا يسمر الدكان ، وهو واقف بنفسه عليها حتى تسمر ، كان السلطان اثناء مشيه فى الاسواق ينظر الى البيوت ، فاذا لمح امرأة جميلة هجم عليه اقتحمه واغتصب المرأة امام زوجها ، واخيها ، فى احدى الليالى دخل حارة الروم ، هجم على دار ابراهيم مستوفى ديوان الخواص ليلا وقبض على ولده ابنى البقا واراد قتله ، فلقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار ، كان السلطان الطفل - الذى أصبح مراهقا بشعا - قد بلغه ان زوجة ابنى البقا جميلة ، فهجم عليه بسببها ، فأخفوها منه ، فجرى منه ذلك ، مرة اخرى سمع عن امرأة جميلة ، فاقتحم طاقة بيتها ، واغتصبها ، وضرب زوجها بالمقارع وسط بيته ، وقطع دائرة فرجها بيده ، ونظمه فى خيط اعده لنظم فروج النساء ، فى يوم آخر امسك بجارية جميلة ، اغلق عليها الباب ، ربطها ، وفى قسوة بشعة راح يسلخ جلدھا ، راحت أمه تتشفع لها ، ولكنه

لم يستجب لطرقاتها فوق الباب ، واستمر حتى سلخ
الجارية تماما ، وحشا جلدھا ثيابا ، وخرج يظهر لمن
بالباب قدرته على السلخ ، راح يصبح .

« ان الجلادين لا يستطيعون ان يفعلوا مثلما فعلت » .
ونتوقف عن سرد فظاعاته مع النساء .

ويمضي عام آخر من سنوات العذاب النى عرفتھا مصر ،
ولندع شيخنا ابن اياس يعلق :

« وقد خرجت هذه السنة على الناس وهم فى امر
مريب ، وقد وقع بها الفلاء والفناء ، والمصادرات للناس ،
وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدم ، واذى الممالك
فى حق الرعية ، وقد صارت الناس فى غاية الاضطراب
وما كفى هذا كله ، حتى فشى فى الناس داء يقال له
الحب الفرنجى (الزهرى) اعاذنا الله منه ، وقد اعيب
الاطباء امره ولم يظهر هذا بمصر قط سوى فى اوائل هذا
القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى ، انتهى ذلك .

ولكن أيام السلطان المجنون لم تنته بعد ...

فى غمار الاستمتاع بالسلطة وسكرتها ، تبدو الاوضاع
مستقرة هادئة ، ويخيل للحاكم انه سيقضى بقية عمره
يحكم ويفسق ، ولن يردعه رادع ، وفى مصر كانت تمر
فترات يبدو فيها الواقع آسنا ، كريها ، وما من حركة
ايجابية تواجه البفى ، وفجأة يتفجر الواقع عن مفاجأة
لا تخطر على بال ، ربما يتحرك شخص واحد ، يفتدى
أمتة بنفسه ، فيجهز على الطاغية ، وهكذا يتبدل الواقع
الى الافضل ، وقد يهب الشعب كله الذى ظن القريب
والبعيد انه مات ، وانه لن يتحرك .

جاءت سنة ٩٠٤ هـ ، والأحوال سيئة للغاية ،
والمماليك طالبين الشر مع السلطان ، فلما كان يوم الاثنين
ثالث عشر ربيع الأول ، نزل السلطان من القلعة وتوجه
الى بر الجيزة ، لم يصحبه أحد من الأمراء ، حتى
ولا خاله ، نصب هناك خيمة وأرسل أحضر أبو الخير
لاعب خيال الظل المشهور ، وجوق مغانى ، وأقام ثلاثة
أيام وهو فى أرغد عيش ، وأثناء عودته مر على الطالبة ،
وكان الأمير طومان باى الدوادار هناك ، خرج الأمير وعزم
عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة فيها لبن فاخر ،
فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة
اللبن والمعلقة فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن ، فبينما
هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم
يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك نحو
من خمسين مملوكا ، وهم لأبسون آلة السلاح ، فاحتاطوا
به ، وعاجلوه بالحسام قبل الكلام .

وقتل أشر قتلة ، مثلوا به كما مثل بالمئات .

وهنا لنصفى الى شيخنا ابن ياس :

« . . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحوا من
سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما ، وكانت أيامه كلها
فتن وشرور ، وحروب قائمة ، وما كان الأشرف قايتباى
قصده ان يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك » .

ويسدل الستار على فترة حالكة من تاريخ مصر الطويل .

خاير بك

« . . في ذلك اليوم البعيد المتوارى الآن في اعماق التاريخ ، شرع السلطان الفورى يصيح محاولا لم شمل عساكره بعد أن دارت الدوائر وصارت الكفة راجحة الى جانب السلطان سليم العثمانى ، « يا أغوات ، هذا وقت الشدة ، هذا وقت المروءة ، قاتلوا وعلى رضاكم » .

ولكن لم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسحبون من حوله شيئا بعد شيء ، وفوق الغبار الذى غطى سهل « مرج دابق » خيم شبح الخيانة الكئيب المقزز ، لقد عرف على الفور ان بعض أمراء المماليك كانوا على صلة بالسلطان سليم ، ومنهم خاير بك نائب حلب الذى كان يقود الميسرة لقد كان موالسا على السلطان الفورى فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وظهرت خيائنه مبكرة ، كان أول من هرب من القادة ، والحقيقة ان خيائنه بدأت قبل موقعة مرج دابق بكثير ، كان على صلة بالعثمانيين ، يرسلهم بأحوال مصر ، ويكشف أسرارها ، ولا يحدد لنا ابن اياس التاريخ الذى بدأ فيه تجنيده للعمل الى جانب العثمانيين وهذا طبيعى فتاريخ الجواسيس والخونة يلفه الغموض دائما ، ولكن

يبدو ان « ثجنيد » خاير بك للعمل الى جانب العثمانيين
فد تم عندما تولى نيابة حلب ، وتلك منطقة تقع عند
حدود السلطنة المملوكية وتحاذى السلطنة العثمانية ،
ويبدو ان خاير بك لم يمر بمرحلة معاناة طويلة فى
رحلة خيانتة ، اذ اننا نلاحظ ما يمكن أن نسميه الشعور
باللائتماء الى الوطن عند كثير من المماليك الذين انتزعوا
من اوطان بعيدة وجيء بهم الى مصر ، ويبدو هذا اللائتماء
واضحاً فى سلوك السلطان الفورى عند نزوله من القلعة
وخروجه على رأس الجيش المصرى لصد العثمانيين اذ
أخذ كل ما يملكه من اموال وتحف وجواهر وسلاح نادر
فوق عشرات البغال ، كان المال هو الوطن الحقيقى ،
لا ننكر ان العديد من أمراء المماليك ارتبطوا بمصر ،
واعتبروها وطنهم ، وبعضهم استشهد من أجلها ، وفيما
بعد كان العثمانيون يطلقون عليهم « الامراء المصرية » ،
لكن ظاهرة اللائتماء كانت واضحة أيضاً فى البعض ،
وتتجسد فى هؤلاء الامراء الخونة الذين خامروا على
سلطانهم ، وتسببوا فى ضياع السلطنة المصرية التى
كانت تحمى البحرين والحرمين ، وتحويل مصر التى
تباهى بملكها الملوك الى مجرّد ولاية تابعة للسلطنة
العثمانية وكان خاير بك أشهر خونة ذلك الزمان .



كان خاير بك جركسيا أباضى الجنس (١) . وكان أبوه
اسمه ملباى الجركسى ، قدمه مع اخوته الاربعة الى
السلطان قايتباى ، وهكذا أصبحوا من مماليكه ، أقام

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٢٠٤ - ص ٤٨٣ الجزء الخامس

خاير بك بالقلعة ثم اخرج له السلطان خيلا وقماشاً وعمار
من جملة الممالك الجسدية ثم بقى خاصكيا دوا دار
سكين ، ثم بقى أمير عشرة في سنة احدى وتسعمائة في
دولة الملك الناصر بن الاشرف قايتباي ، ثم بقى أمير
طبلخاناه في دولة الملك الناصر محمد بن قايتباي .
وارسله في مهمة الى الخونديكار ابي يزيد بن عثمان
السلطان العثماني عام ثلاثة وتسعمائة « ومن المحتمل
ان يكون قد بدأ صلاته السرية بالعثمانيين خلال هذه
الزيارة » . استمر خاير بك في الترقى حتى اصبح حاجب
الحجاب في بداية سلطنة الفوري ، ثم عين سنة عشر
وتسعمائة نائبا ، وحتى هزيمة السلطان الفوري في مرج
دابق لا نسمع أخبارا عن خاير بك ، ولا تطالعنا مواقف
بارزة له ، ولا نجد اسمه في بدائع الزهور الا عند ذكر
أرباب الوظائف بالدولة ، ولكن خاير بك يطفو على سطح
التاريخ من قاع الخيانة ، لقد مرت حياته حتى مرج
دابق بمرحلة ، وتبدأ المرحلة الثانية بانضمامه الى
السلطان سليم حتى دخوله القاهرة . أما المرحلة الثالثة
فتبدأ منذ تعيينه نائبا للسلطنة العثمانية بمصر وتنتهى
بموته . .



انضم خاير بك اثر الهزيمة مباشرة الى السلطان سليم
العثماني ، يقول ابن اياس :

« وممن كان موالسا على السلطان في الباطن وهو
خاير بك نائب حلب ، فانه اول من كسر عسكر السلطان
هو ، وهرب من ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه الى

حماة ، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زى التراكمة العمامة المدورة والدلامة وقصص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك ، كون انه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فسماه بذلك ، فلما جرى ذلك تسحبت ممالك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هولاءكو ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقربين الى هولاءكو ، ثم أقلب عليه وقتله ، وصلبه ، وقال له ، انت ما كان فى وجهك خير لاستاذك يكون فى وجهك خير لى . . وربما يقع لخاير بك نائب حلب مثل ذلك .

يتضح من سطور ابن اياس احتقاره لخاير بك ، والحقيقة ان الخائن كان يدخل مرحلة جديدة فى حياته ، لقد رفض ممالكه ان يتبعوه ، ومضى هو الى صفوف السلطان العثماني مع خونة آخرين أمثال الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى ، وتبدأ العلاقة المعقدة بين الانسان الذى باع نفسه والسلطان الذى اشتراه ، انه بيع من نوع خاص ، فبيع البشر كان أمرا عاديا فى ذلك الزمان ، ولكن هذا البيع الإرادى له اسم واحد على مر العصور كلها ، مهما اختلف الزمان ، انه الخيانة بعينها ، وهنسا لا ينظر السلطان العثماني باحترام الى الخنائين ، انما يحتقره ويحذر جانبه ، ويسميه خاين بك ، وينتشر الاسم ليصبح

على السنة الناس كلهم فى مصر ، وربما كانت حكايات
الناس المتداولة نسبت الى السلطان سليم تسميته لخاير
بخاين بك ، ولكن لا شك أن تصرفات السلطان تجاه خاير
بك تكشف مدى احتقاره له ، وهنا يجد الخائن نفسه
مضطرا الى ابداء ولاء زائد تجاه السلطان الذى باع نفسه
له ، بعد ان انضم خاير بك الى العثمانيين يحدثنا
« ابن زنبيل الرمال » فى كتابه « وقعة السلطان الفورى
مع السلطان سليم » عن علاقة خاير بك بالسلطان
العثمانى ، وكيف انه أشار عليه بذبح الكثير من الممالك
الذين وقعوا فى الاسر ، ويقول ابن زنبيل الرمال ..
« وكان السلطان سليم ليس له اقدام على قتل
النفس » (١) .

ان الخائن يصبح مبالغا فى العداء لقومه ، يود ابادتهم
كلهم وكأنه يريد اطفاء العيون التى تتطلع اليه باحتقار ،
ويلج الخائن على السلطان سليم فى ضرورة التوجه الى
مصر ، يقول ابن زنبيل الرمال ..

« فقال له السلطان سليم ، وانى لى بأخذ مصر ،
وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا اهبتهم ،
وسلطنوا عليهم طومان باى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة
والفروسية ولا بد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين
فى بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا ، فقال خاير
بك : ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة وانقطعت
قلوبهم ، لا سيما والخلف واقع بينهم ، فانهم جميعا

(١) ابن زنبيل الرمال ص ٤٢

مختلفون ، وكل من الامراء والاعيان قصده هلاك الآخر ،
فحيثما كان ذلك فلا تخش من شيء ، وانت منصور بنصر
الله لك .

ويذكر ابن زنبيل ان السلطان سليم وبخ خاير بك كثيرا
كلما واجه موقفا صعبا ، بل انه فى بعض الاحيان هم
بضرب عنقه ، خاصة بعد دخول القاهرة ، وهروب
طومان باى وتجميعه للمصريين والعربان وتنظيمة المقاومة
ضد الفزو العثماني ، وعندما كان العثمانيون يمسون
بامراء الممالك الهاريين ، كان خاير بك يستحث السلطان
سليم فى قطع رقاب الذين كانوا يوما زملاءه ومن بنى
جنسه ، وعندما يؤسر كرتباى الوالى يناقشه السلطان
سليم ويعجب به ويقرر الابقاء على حياته ، لكن خاير
بك يقول له « يا مولاي ، ان ابقيت عليه وجعلته وزيرا
لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد
جميع عساكرك » ان اى نموذج ايجابى يصبح مصدر
ازعاج شديد للخائن. ويسعى بكل قوة للقضاء عليه ،
ويتكرر نفس الموقف عند اسر طومان باى السلطان
الملوكى الشجاع ، ان سليم العثماني يعجب به ، ولكن
خاير بك يجرئنه بكل الوسائل على قتله ، حتى يتم
شنقه على باب زويلة ، ان الخائن يتدل كل ما تبقى من
انسانيته شيئا فشيئا فى سبيل ارضاء سيده الجديد،
وقبل ان يغادر السلطان سليم مصر يقرر تعيين خاير بك
نائبا له بمصر ، ويلقب خاير بك بملك الامراء ، ولكن اى
امراء ، فقد صعد الى القلعة التى كانت مقرا لحكم
السلطين .

فى يوم الاحد السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٣٣ هـ ، طلع الخائن الى القلعة ، وبعد يومين فقط ثار عليه جماعة من جنود الانكشارية العثمانيين .

« وقالوا له : رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ الممالك الجراكسة ، فقال لهم : حتى ارسل اطالع استاذكم بذلك (١) .

ان الخائن يجد نفسه فى حاجة الى الرجوع فى كل كبيرة وصغيرة الى سيده ، كل يوم يمر عليه فى السلطة يتزايد احتقار العثمانيين له ، فقد طالبوه مرة اخرى بأن يرتب لهم أرزاقا من اللحم كما كان السلطان يرتب للممالك من قبل .

« وأغلظوا عليه فى القول ، فقال لهم : انا سلطان حتى افرق عليكم الاقطاعات ارسلوا قولوا لاستاذكم يفرق عليكم الاقطاعات ويجعل لكم الجوامك واللحوم والعليق ، فلما سمعوا ذلك سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله » (٢) .

ان الخائن يواجه حقيقة نفسه فيقول لجنود سيده « انا سلطان حتى افرق عليكم الاقطاعات ؟ » . ولكنه يحاول التشبه بالسلطين فيعقد مجلسا لقراءة صحيح البخارى وفى نهايته يوزع الخلع والهدايا على العلماء ، ولكن الحفل هزيل ، ان ابن اياس يعلق على ذلك قائلا :

« وششتان بين هذا الختم وما كان يعمل فى ختم السلطين الماضية فى مثل هذا اليوم » (٣) .

-
- (١) بدائع الزهور - الجزء الخامس ص ٢١٠
 - (٢) بدائع الزهور - الجزء الخامس ص ٢١٣
 - (٣) بدائع الزهور - الجزء الخامس ص ٢١٥

ومرة أخرى يقول ابن اياس معلقا عندما خطف
العثمانيون الاكل الذي كان محمولا الى الخائن عندما خرج
للنزهة :

« ولم يكن لخاير بك عند العثمانية حرمة ولا وقار ،
ولا مراعاة له في سائر الاحوال » (١) .

كان الخائن يحاول التشبه بأسياده القدامى ، سلاطين
الممالك .

ولكن الخيانة تخفض قيمة أى فعل ، بالاضافة الى
الظروف ، عندما يحتفل بالمولد النبوى فى الحادى عشر
من ربيع الاول سنة ٩٣٤ هـ . ويقول ابن اياس :

« فصنع له ملك الامراء مولدا لم يشعر به أحد من
الناس ، فقبل حضر عنده عشر جوق من القراء والوعاظ
وبعض فقهاء ، فرسم لكل جوقة من هؤلاء باشرين
فضجوا من ذلك ، وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى
مولد السلاطين لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ
فى مولد ملك الامراء اشرفين . فرسم لكل جوقة بأربعة
اشرفية لا غير ، وقيل ان ملك الامراء أخلع على الوعاظ
فى ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعد
ذلك واعطاهم مبلغا يسيرا ، ثم بعد العصر مد سباطا
فى المقعد الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر ، تخاطفته
العثمانية على لمح البصر وبات غالب الفقهاء ، بلا عشاء ،
وأين الحسام من المنجلى ، بالنسبة لما كان يعمل فى مولد
السلاطين الماضية من الاسمطة الحافلة والشقق الحرير
التي كانت تدخل على جوق القراء ، والوعاظ ، ولا سيما

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢١٦

ما كان يعمل فى موالد السلطان الفورى ، فكان يصرف على سماط المولد فوق الالف دينار . وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة المعظمة التى لم بقى يسمح الزمان بمثلها أبدا ، القضاة الاربعة ومن الامراء المقدمين اربعة وعشرون اميرا مقدم ألف ، غير بقية الامراء والعسكر .

باستمرار يحاول خلق الهيبة لنفسه ، ويتشبه بسلوك السلاطين ، فينزل من القلعة فى مواكب يحاول أن يضيف عليها الابهة ، ولكنها كانت تفتقر الى ذلك ماديا ومعنويا ، فالفخامة ولت ، وفى وصف ابن اياس لمواكب الخائن ونزوله نلمح فتورا ، بل واحتقارا ، ولا يذكر ابن اياس ان الناس قابلت الخائن بالترحيب أو التهليل كما كان يحدث أيام السلاطين المماليك ، لقد كان الشعب المصرى يحتقر الخائن احتقارا كبيرا ، فلا يذكر اسمه الا بخاين بك .

كان احتقار الشعب له نتيجة عدة عوامل ، اولها الخيانة الفادحة التى راحت ضحيتها مصر ، أما العامل الثانى فعجزه عن رد حقوق الناس اليهم ، لا تقرا انه رد بضاعة مسروقة الى صاحبها ، أو أنصف مظلوما ، بل ان الخائن كان يمارس الظلم بوضاعة ، لقد احتكر التجارة فى خيار الشنبر ، وحدث ان دخل أحد الفلاحين الى حقل وقطع بعض العيدان من خيار الشنبر ووضعهم فى قفة ، فقبض عليه الخولى وأتى به الى الوالى ، فعرضه الوالى على الخائن خاين بك ، وهنا يأمر بشنق الرجل .

» وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار الشنبر

ما يسووا أربعة أنصاف ، فتأسف عليه الناس كيف راح
ظلما على شيء ما يستحق هذا كله وكان له أولاد وأم
وزوجة ، وكان ملك الأمراء خاير بك يبات يسكر بطول
الليل ويصبح فى خيال السكر يحكم بما يقتضيه عقله .
ولم يظهر العدل فى محاكماته قط منذ ولى عهد
مصر « (١) » .

ثم يطالعنا ابن اياس بحادثة أخرى :

« وفى يوم السبت سادس عشر رسم ملك الأمراء
بشنق شخص عجمى فشنق على باب زويلة ، وكان هذا
التاجر فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق
ومعه متجر بمال له جرم ، فطمع ملك الأمراء فى ماله ،
وزعم انه جاسوس من عند شاه اسماعيل الصوفى حضر
ليكشف عن أخبار مصر وأحوالها ويطالع الصوفى بذلك
فشنقه ظلما واحتاط على جميع أمواله « (٢) » .

من ناحية أخرى كان الخائن يبالغ فى اظهار مشاعره
وردود فعله تجاه ما يلحق العثمانيين من أذى .

« ومن الحوادث فى يوم وفاء النيل ان شخصا من
العثمانية غرق فى البحر ، وتنكد ملك الأمراء فى
ذلك « (٣) » .

وفى خان الخليلى كان أحد العثمانية يسير عندما
قبض على أحد العوام وزعم أنه سرق من جيبه مبلغا
تافها لا يتجاوز القرشين ، فلما قبض عليه :

« طلع به الى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين يديه وقص

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٥٤

(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٦٢

(٣) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٦٩

عليه قصته وما فعله به في خان الخليلى ، وانه قبض على يده وهى فى جيبه وأخذ من جيبه وهو ماش أربعة أنصاف ، فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للوالى بأن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها فى رقبتة وأشهره فى القاهرة فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف وقد راح ظلما ، وقد تقدم لملك الأمراء انه شنق شخصا على عيدان خيار شنبر سرقها من جنينة فى زقاق الكحل ، فشنقه ظلما وراح ظلما على عيسى عيسى شنبر وكان ملك الأمراء يصبح وهو مخمور فيحكم بين الناس بالعسف والظلم ما لا يسوغ الشرع فى محاكماته وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين فى أفعاله كلها « (١) .

كما ان كثيرا من أفعال الخائن كانت تافهة تلقى استهزاء المصريين وسخريتهم . .

« وفى ذلك اليوم المذكور ، أحضر ملك الأمراء خاير بك فى الحوش كباشا يتناطحون قدامه ، وكان قبل ذلك نادى خاير بك فى القاهرة : كل من كان عنده كبش نطاح يطلع به الى القسلة يناطح بين يدى ملك الأمراء فاستخف الناس عقل خاير بك على ذلك . . « (٢) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٩٢٥ هـ .

« أشيع ان ملك الأمراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرى الجركسية ضربا مبرحا حتى كادت أن

(١) - بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٧٤

(٢) - بدائع الزهور . الجزء الخامس ص ٢٢٧

تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القيل
والقال « (١) .

وفى ذى القعدة سنة ٩٢٦ هـ يورد ابن اياس حادثة
طريفة تعكس ما وصل اليه الحال ..

« وفيه اشيع ان صبيانا صفارا قعدوا يلعبون فى
بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الامراء وآخر
والى القاهرة ، ونادرا ان أحدا لا يخرج من بعد العشاء،
فقام أحد الصفار وخطف عمامة آخر يعبث عليه فقبضوا
عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الامراء فرسم
للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه فدقوا له
عصا فى الارض ، وأقعدوه عليه غصبا ومنهم من قال ان
الصبى مات من وقته ومنهم من يقول انه لم يميت ، فلما
جرى ذلك تهاربت الصفار الى حال سبيلهم ، وقد هان
القتل فى هذه الايام حتى عند الصفار .. » (٢) .

ولكن النهاية لم تكن سهلة ، وتلك ظاهرة نلاحظها فى
أشهر خونة ذلك الزمان ، فجان بردى الغزالى الامير
المملوكى الذى خان طومان باى وأعطاه السلطان العثمانى
نيابة الشام ، نجده يتمرد بعد فترة قليلة من توليه
منصبه الجديد ، ويدفعه طمعه الى الاستقلال بالشام
وتقطع رأسه فى نهاية حركته ، أما خاير بك فقد كان
مخلصا فى خيانتة فلم يفكر فى الاستقلال بمصر أبدا ،
بل انه قطع رأس أحد المواطنين كان قد جرؤ وردد اشاعة
تقول بنية الخائن فى الاستقلال بمصر ، أما الخائن الثالث

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٣٠٢

(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٣٥٩

شيخ العرب حسن ابن مرعى فقد قطعت رأسه أيضا
فى عهد الخائن ، وقيل ان المماليك الجراكسة شربوا من
دمه وقطعوا لحمه جزلا بالسيوف ، وكان ابن مرعى قد
خان طومانباى وسلمه الى العثمانيين بعد ان اختبأ
عنده .

لقد بدأ مرض الخائن فى ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ ،
ولزم الفراش على الفور ، تزايد به المرض ، انقطع عن
المحاكمات ، قيل انه وقع فريسة لثلاثة أمراض جاءت
مجتمعة وكما يصفها ابن اياس . « منها فرخة حمرة
طلعت له فى مشعره ، وانحدر انصب له فى أعضائه ،
وهو من أنواع الفالج وكتم البول ، وحرار الاطباء فى
علاجه » .

وعندما تزايد المرض ، يلجأ الخائن الى ما يظن انه
سيهدىء نفسه : فنجدته يتصدق على جميع أطفال
الكتاتيب بالقاهرة ، لكل صغير منهم بنصف فضة ، كانوا
يقولون لهم ، اقرأوا الفاتحة وادعوا لملك الامراء بالعافية ،
حتى فى تلمسه أسباب الراحة النفسية يلجأ الى المال
ليشترى به الدعاء ، لا عجب ، فان لكل شىء ثمنا عند
الخائن .

فى يوم الخميس الحادى عشر من الشهر اشيع بين
الناس انه عجز عن القيام ، شل تماما ، فلما تزايد به
الامر ، اعتق جميع جواريه ومماليكه ، وأفرج عمن كان
سجنهم ظلما ، انه يدفع ثمنا أغلى ليشتري الراحة .
« ثم انه دفع للقاضى بركات بن موسى ألف دينار فضة ،
ورسم باخراج عشرة آلاف أردب قمح من الشونة ،

ورسم للمحتسب بأن يفرق ذلك على المجاورين بالازهر،
والمزارات والزوايا التي بالقرافتين قاطبة .

ويعلق ابن اياس على ذلك قائلا :

« ولم يروا الناس في أيام ملك الامراء خاير بك احسن
من هذه الايام ، فانه جاد على النـسـاس وبر الفقراء
والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم
يفده من ذلك كله شيء ، ويأبى الله الا ما اراد . . » .

وعندما قوى عليه النزع ، راح يهذى قائلا : أين
المال ؟ أين المال ؟ أين الملك ؟ . وصار يصعق حتى خاف
منه من كان حوله .

« وقد فتنته الدنيا كما فتننت من قبله ، فكان كما
يقال في المعنى . . »

« قد نادت الدنيا على نفسها
لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر خيبتـــه
وجامع بددت ما يجمــع »

في يوم الاحد الرابع عشر من ذى القعدة قبضت روح
الخائن ، ويعدد ابن اياس مساوئه التي لا تحصى ،
ويقول انه كان جبارا ، عنيدا ، سفاكا للدماء ، قتل
في مدة ولايته على مصر ما لا يحصى من الخلايق ، واخترع
طريقة جديدة في القتل عن طريق ادخال الخازوق في
الاضلاع وكان يسميها « شك الباذنجان » ، واتلف تقود
الديار المصرية ، وعزل القضاء الاربعة ، وزادت كراهيته
لرجال العلم والفقهاء ، اما أعظم مساوئه ، فانه كان سببا
في خراب مصر ، لقد حسن لسليم شاه اخذ مصر ،

وضمن له أخـلـدـها ، وعرفه كيف يصنع . كان كثير الحيل . والخداع والمكر . لا يعرف له حال .

دفن الخائن فى تربته التى بناها قرب باب الوزير على طريق القلعة ، يقول ابن زنبيل الرمال :

« يمر عليها الباشات والصناجق والافوات عند ذهابهم وايابهم ، فلم يلتفت اليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر ، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لانه كان سببا فى هلاك الوف مؤلفـة من الجراكسة والاروام والعرب وغيرهم . . » .

وبين الناس وعامة شعب مصر كانت الاقاويل تتردد عن الخائن حتى بعد موته ، يقول ابن زنبيل الرمال :

« وكانت الناس تسمع صراخه فى القبر وهو يصيح حتى ضجت الناس من ذلك » .

وكان موته-عبرة لمن اعتبر ، وهكذا حال الدنيا تفعل بأهلها ، فهنئاً لمن اعرض عنها وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عن باله فيالها من دنيا .

فهرس

٧	مقاهى القســـــاهرة
٢٣	الترجيلة
٣٢	العمامة المملوكية
٤٢	الخيســـــول المملوكية
٥٩	أسواق القاهرة العربية
٧٣	مسجد المؤيد
٨٤	مسجد الحاكم بأمر الله
١٠١	مآذن القـــــاهرة
١١٥	بيوت القاهرة القديمة
١٢٦	الباب الدامى
١٣٩	مجالس السلطان الفورى
١٥٧	« النشو »
١٨٣	السلطان الطفل
١٩٥	خاير بك

رقم الايداع يدار الكتب ٤٢٩٥ - ١٩٨٣
 الترقيم الدولى : ٥ - ٠٤٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكشافة اشتراكات مجلات دار اسرار

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الكويت -
الصفحة - ص ٠ ب رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة - ص - ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

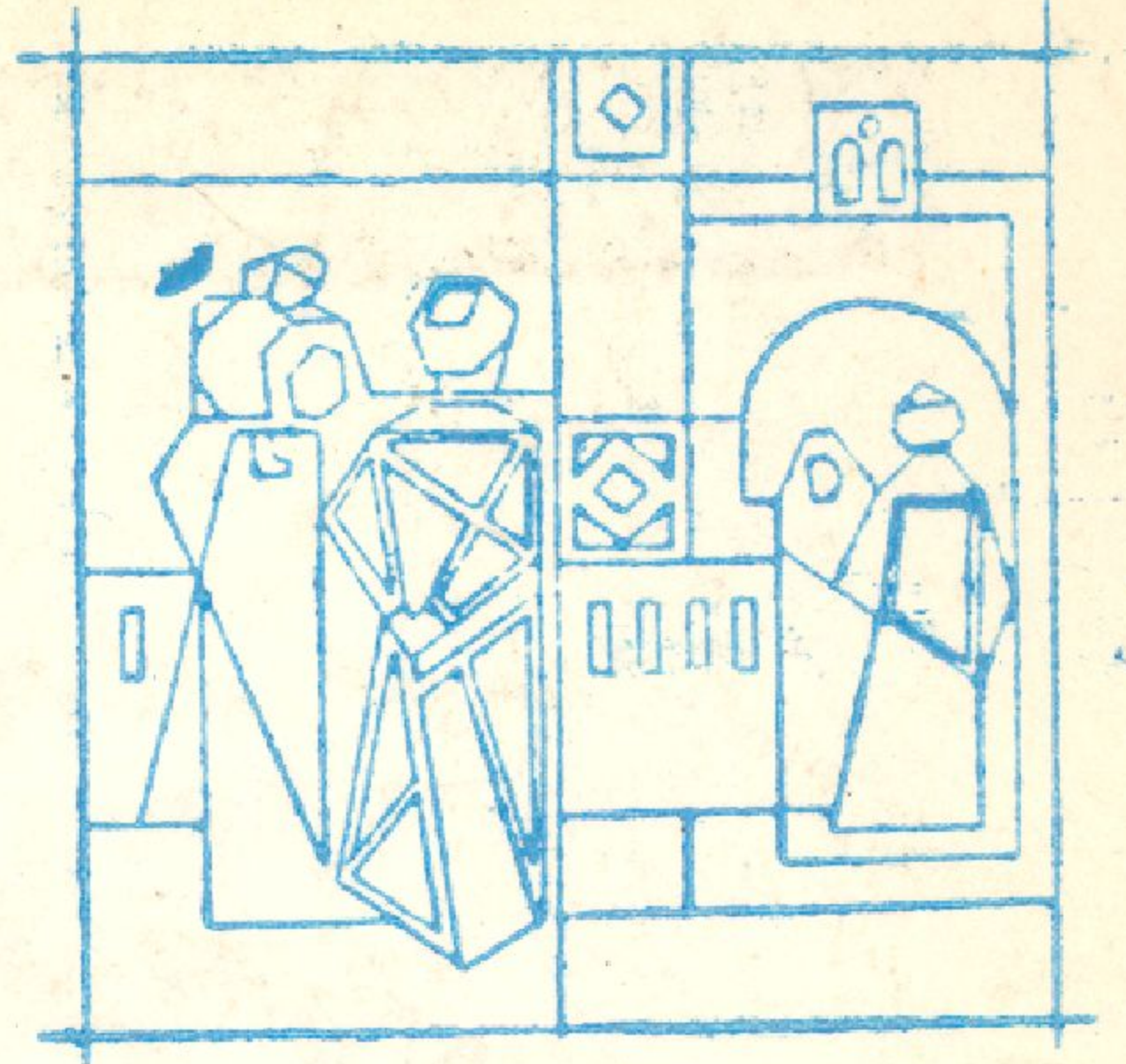
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthorpe Road
London S.E. 26 ENGLAND

انجلترا :

M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Marac. 990 : البرازيل
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار المبيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠٠ مليما :

سوريا ٧٠٠ ق . س ، لبنان ٧٠٠ ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت
٩٠٠ فلس ، العراق ١٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، السودان ٧٠٠
مليم ، تونس ١٠٠٠ مليم ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ،
الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس
٦٠ بنى ، اسمره ٥٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥ بنى ، الصومال ٥
بنى ، اديس ابابا ٥٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨ بنى ،
ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، سويسرا ٣٥ فرنكات ، اثينا ٨ دراخمه ، فينبا
٣٥ شلن ، فرانكفورت ٣٥ مارك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم
١٤ كرونه ، كندا ٢٥ سنتا ، البرازيل ٣٥ كروزيرو ، لوس
انجلوس ٣٠ سنت ، استراليا ٣٠ سنت ، هولندا ٤ فلورين ، نيويورك
٢٥ سنتا .



هذا الكتاب

كتاب فريد فى مضمونه ، رحلة فى تاريخ القاهرة ، فى زمنها
ومكانها ، رحلة تستعيد التاريخ ولا تعيده ، من خلالها تتجسد رؤية فنية
تقف عند ناصيتى الواقع والفن ، تتناول الآثار المدينة ، وشخصياتها
وعادات شعبها القاهري ، وليالى زمنها المملوكى . مقاهيها القديمة
التي اندثرت والتي لا تزال تصارع الفناء ، أسواقها العتيقة ، بيوتها
الاثرية التي أفلتت من البلى ووصلت الى زماننا ، دروبها ، حواريتها ،
معاناة أهلها فى عصور الظلم والقهر ، أزياء القاهريين فى الزمن
المملوكى ، الحاكم بأمر الله وما تبقى منه ، خاين بك الذى سلم مصر
كلها للعثمانيين ، وغيرهما . . من سلاطين ، ومشايخ ، وصناع
وأهل السبيل . .

يقوم بهذه الرحلة الروائى المعروف جمال الغيطانى ، وهو
عاشق لاقاهرة القديمة التي عاش فيها جل عمره ، عرف ماضيها من
خلال معايشة يومية ، واحساس مرهف بالتاريخ ، ورؤية فنية
لمرور الدهر بالبشر والمباني والامصار . فى الكتاب
لموضوعات قاهرية شتى . يجمع بين الدقة التاريخية ، والخيال
وسرد الروائى المتمكن ، والرؤية الفريدة لما انقضى وكان
التي تمسك بما يتوارى فى كتب المؤرخين ، وترى ما لا
وتستشعر نبض الزمن الداخلى الذى لا تدركه الا روح
محاولة لصون بعض ملامح الدهر القاهري .

216

71

2

0527960

٣٥ ق